مكتبة الدراسات الأدبية
٣٩

ابن الكيزانى

الشاعر الصوفى المصرى

حياته وديوانه

تأليف
الدكتور على صافى حسين

دار المعارف بمصر

مكتبة الدراسات الأدبية
٣٩

ابن الكيزانى

الشاعر الصوفى المصرى

حياته وديوانه

تأليف
الدكتور على صافى حسين

دار المعارف بمصر

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. ع. م.

ابن الكيزانى

الشاعر الصوفى المصرى

تقديم

أرى أن دراسة الأعلام السابقين — من أساطين الفكر ، وأئمة الدين ومن عباقرة فن القول وأرباب البلاغة والبراعة — وترجمة حياتهم ، تهدف أولا وبالذات إلى إعطاء اللاحقين أو المتأخرين من طلاب المعرفة ورواد الأدب صوراً ناطقة معبرة تمثل — فى مطابقة تصدق على قدر جهد الباحث — شخصيات أولئك المتقدمين من الجهابذة الناقدين ، والعلماء المحققين ، والشعراء المفلقين ، والكتاب الضالعين ، والخطباء اللسن المصاقع . فهى — أعنى تلك الصور المتحصلة من دراسة أولئك الأفذاذ — تجسم فيما تحتوى عليـــه من ملامح وقسمات عواطفهم وإحساساتهم ، وتبين أهواءهم ، وتفصل آراءهم ، وتكشف عن عقلياتهم ، وتبرز إلى حيز الوجود الفكرى والثقافى طاقاتهم العلمية وملكاتهم الفنية . فينضاف بذلك لبنة أو لبنات جديدة فى بناء العلم وصرح الفن ودنيا الأدب . وبالتالى يفيد من ذلك فائدة مرجوة طلاب المعارف وعشاق الآداب . وكل ذلك لا يجىء على الوجه المرضى ولا يتأتى منه الغرض إلا إذا كانت دراسة العالم أو الأديب ، وترجمة حياته ، قائمة على التدبر والتأمل والفهم الصحيح . ونحن إذا أردنا أن تكون أفهامنا لأولئك الأشخاص أدنى إلى الصحة وأقرب إلى الصواب ، وأحكامنا عليهم أدخل فى الإنصاف والسداد ، فإن علينا أولا أن نجمع ما خلفوه من نصوص وأقوال حتى نستوعب كل ما أمكننا أن نصل إليه من ذلك ، أو نقف عليه ، ثم نحقق تلك النصوص ونتثبت من صحة نسبتها إلى قائلها . وبعد ذلك ننظر بعين التحقق والتثبت والنقد والتمحيص فيما قيل فى حق موضوع الدرس أو الترجمة من أحكام وآراء من الذين عاصروه وخالطوه أو الذين ترجموا له ممن لم يلقوه ولا رأوه ، وإنما سمعوا به وقرأوا عنه . وأخيراً وليس آخراً نتفهم العصر الذى كان يعيش فيه المترجم له أو من اختير موضوعاً للبحث العلمى والتحقيق الأدبى كالذى نحن بصدده فى هذا البحث من دراستنا لابن الكيزانى .

ولست أعنى بالعصر الزمان أو الشهور والأيام ، وإنما أقصد تلك العناصر والمقومات التى تتألف منها حياة الجماعة البشرية وهى الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية . وإننا حين ندرس العصر على هذا الوجه إنما ندرسه لأمرين هما :

أولا : كون الإنسان كائناً حيًّا يتفاعل فى حياته الفكرية والجسمية مع الوسط الذى يعيش فيه ، ولست أريد أن أنساق فى هذه المسألة وراء أولئك العلماء الذين بالغوا فى تصويرهم لمدى ارتباط الإنسان ببيئته ووسطه ، إذ زعموا أنه ليس إلا أثراً أو نتيجة لتفاعل عناصر البيئة المادية والمعنوية ، وإنما أقول فقط إن الإنسان يتأثر بالغ التأثر بما يحدث أو يقع حوله من أحداث وما يكتنف وجوده من مظاهر الحياة الإنسانية وأوضاع الجماعة البشرية ، ثم هو يتأثر إلى حد كبير بما تكون عليه حال أرض الوطن الذى يعيش فيه من سهولة وانبساط يجعل الحياة ميسورة ، أو وعورة وصعوبة تجعل الحركة والتنقل بين بقاعها عسيرة مضنية . وذلك إذا ما كانت هذه الأرض أو تلك البلاد تكثر فيها الجبال والأودية أو الصحارى والقفار . وكذلك يكون تأثره بالغاً بطبيعة الجو أو المناخ الذى يظله فى ذلك الوطن . إذ لا يستطيع ذو عقل أن ينكر ما لبرودة الجو أو حرارته من تأثير على الأجسام والأبدان والنفوس والميول والرغبات والسلوك والأخلاق .

وأما السبب الثانى الذى من أجله نكلف ونعنى إلى حد كبير بدراسة عصر ذلك الشخص المقصود بالبحث أو الترجمة ، فهو أن الإنسان معقد فى حياته وتصرفاته ، وعلماء النفس يعترفون بهذا ويقرونه . فهو — أعنى الإنسان — كثيراً ما يقول بلسانه ما ليس فى قلبه ، ومن هنا كان لعصر الشاعر أو الأديب دخل كبير فى تفسير ما قد يعترض الباحث فى تفهمه شخصية من تصدى له بالدراسة من مشاكل ، منشؤها ما قد يبدو من تناقض فى أقواله وأشعاره أو سلوكه وأفعاله . وبالجملة فإن على الباحث الذى يريد أن يخرج للناس صورة صادقة تنطبق على ذلك الشاعر أو الأديب الذى يختاره موضوعاً للبحث والدراسة ، وبخاصة إذا أراد أن يقدم ذلك البحث إلى إحدى الجامعات كرسالة يرجو أن يمنح بمقتضاها درجة علمية ، فإن عليه والأمر كذلك أن يجمع كل ما وصلت إليه يده من نصوص وأقوال ، تنسب إلى الشخص الذى هو موضوع البحث والدراسة ثم يحقق تلك النصوص ويتثبت

من صحة نسبتها إليه ، وبعد ذلك يتبين الظروف والأحوال التي قيل فيها ذلك النص ، ثم ينظر فيما يقال فى حق ذلك الشاعر أو الأديب من آراء أو أحكام تكون له وقد تكون عليه ، سواء أكان أصحاب تلك الأحكام أو الآراء ممن عاصروه وقدر لهم لقياه والأخذ عنه ، أم لم يقدر لهم أن يلقوه ولكن سمعوا به وقرءوا عنه .. أو كان أصحاب تلك الآراء والأحكام ممن جاءوا بعده فترجموا له أو أرخوه . ولكن الفريق الأول فى رأيى أصح رأياً وأصدق حديثاً .

ثم بعد ذلك تأتى أهمية العصر ومكانته بالنسبة للمنهج العلمى الصحيح الذى يترسمه الباحث فى تحقيق شخصية موضوع الرسالة . وإن كان العصر يجىء متقدماً فى ترتيب الرسالة وتبويبها فى أكثر الأحيان فإنه ليس معنى ذلك أن العصر يحتل بالجدارة والاستحقاق من الوجهة المنهجية مكان الصدارة من البحث أو الكتاب ، إنما هو فى الواقع ونفس الأمر لمجرد الترتيب والتنظيم فقط . فتقديم العصر إذن — فيما أعتقد — هو ترتيب شكلى أو ظاهرى .

وبناء على هذا يكون العصر متقدماً — فى الرسالة أو البحث أو الكتاب من الوجهة المنهجية — لفظاً متأخراً معنى ورتبة — على حد تعبير النحاة ، وقد التزمت بكل دقة وأمانة ذلك المنهج فى هذا الكتاب . فجمعت النصوص وحققتها ونظرت فى كل ما قيل فى شأن ابن الكيزانى ممن عاصروه أو لم يعاصروه ، وبعد ذلك تعرفت أوضاع الحياة التى كانت تسود العصر الذى عاش فيه ابن الكيزانى ، وبناء عليه فقد جاء القسم الأول من هذا الكتاب وهو الذى تناولت فيه بالبحث والتحقيق حياة ابن الكيزانى وتفهم جوانبها فى بابين : الباب الأول فى دراسة عصره ، فقد تكلمت فيه بإيجاز لاتفريط فيه عن مقوّمات ذلك العصر وعناصره، وهى — كما هو معلوم بالضرورة لدى جميع الباحثين والمحققين — أربعة أمور هى : الظروف السياسية ، والأحوال الاقتصادية ، والأوضاع الاجتماعية والخلقية ، والحركة الفكرية والأدبية .

ومن ثم جاء هذا الباب فى خمسة فصول : الأول فى تبين الظروف السياسية ، والثانى فى الأحوال الاقتصادية ، والثالث فى الأوضاع الاجتماعية ، والرابع فى بيان عوامل اضمحلال الشعر الصوفى فى مصر فى القرن الخامس الهجرى وفى بيان أسباب عودته إلى الظهور من جديد فى مصر فى القرن السادس الهجرى — الذى هو عصر

ابن الكيزانى – ، والفصل الخامس فى بيان موضوعات وفنون ومدارس الشعر المصرى فى تلك الحقبة بوجه عام . وفى الباب الثانى تناولت حياة ابن الكيزانى بالدرس والتمحيص والنقد والتحليل ، وهو يقع فى ثلاثة عشر فصلا تكلمت فيها عن نشأته وتتلمذه ، وعن روايته الحديث وارتحاله فى طلبه ، وعن تدريسه له ولغيره من العلوم الشرعية وعن تربيته للمريدين ، وبينت موقفه من الشريعة وعلوم أهل الظاهر ، وقلت إنه كان سنى العقيدة والمذهب ، وبينت بعد ذلك كله موقفه من خلفاء الفاطميين وموقفهم منه ، وذكرت بعد ذلك أنه كان يقول بالاشتراكية ويحرم احتكار الأموال . ثم تحدثت عنه من حيث إنه شاعر أو أديب ، وبعد ذلك ذكرت آراء الأقدمين – من المؤرخين والناقدين – فيه ،وقبل ذلك تناولت بالشرح والتبيان أثر ابن الكيزانى فى تطوير العقلية المصرية من إطار التعاليم الباطنية إلى الفكر السنى ، كما بينت كذلك أثره الواضح فى توجيه الحركة الأدبية والشعرية فى مصر بوجه عام . وفى نهاية هذا الباب عرضت بالذكر إلى وفاة ابن الكيزانى والمكان الذى دفن فيه .

أما القسم الثانى من هذا الكتاب فيقع كذلك فى بابين : الباب الأول فى جمع شعر ابن الكيزانى وتحقيقه وترتيبه ، والباب الثانى فى دراسة شعره واستخلاص خصائصه الفنية وذكر مناهجه الأدبية .

والله أسأل أن ينفع بهذا الجهد العلمى والفكرى والعمل الأدبى والفنى الضئيل طلاب العلم ورواد الثقافة وعشاق الآداب من أبناء الإسلام – خاصة – والشبيبة العربية بوجه عام .

القسم الأول

الباب الأول

عصر ابن الكيزانى

الفصل الأول

١ — الجانب السياسى

سنتناول فى هذا الفصل الأحوال السياسية التى كانت سائدة فى مصر إبان الدولة الفاطمية وبخاصة فى القرن السادس الهجرى وذلك من الناحيتين الداخلية والخارجية فنقول :

كان الفاطميون قد استولوا على مصر واستخلصوها لأنفسهم من أيدى العباسيين وذلك فى أوائل النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى . ومن يقرأ تاريخ الدولة الفاطمية يجد أنها كانت فى أول أمرها عزيزة الجانب قوية الشكيمة يخشى العباسيون والفرنجة جميعاً بطشها ، إذ كانت قد بسطت سلطانها على البلدان الواقعة بين المغرب العربى وإقليم المشرق . أعنى أنها كانت قد سيطرت سيطرة فعلية على ليبيا ومصر وجميع ربوع الشام ، كما أنها قد امتدت فى أخريات القرن الخامس الهجرى إلى بلاد اليمن حيث قامت هناك دولة عرفت باسم الصلوحيين ، وكانت هذه الدولة تتبع الخلفاء الفاطميين من الناحيتين السياسية والمذهبية ، غير أن قوة الفاطميين أخذت تضعف وسلطانها بدأ يضمحل ، وذلك فى أوائل القرن السادس الهجرى ، وكان أول مظهر من مظاهر ضعف الدولة الفاطمية كون الفرنجة استطاعوا أن يستولوا سنة ٥٠٣ هجرية على بيت المقدس ، وذلك بعد معركة انهزم فيها الفاطميون هزيمة نكراء ، ولم يجرؤوا بعد تلك الهزيمة أن يعاودوا الكرة على بيت المقدس ، ومن ثم بقيت تلك المدينة المقدسة تحت حكم الصليبيين ، حتى استردها من أيديهم السلطان الناصر

صلاح الدين الأيوبى سنة ٥٨٣ هجرية . ومن مظاهر ضعف الدولة الفاطمية من الناحية السياسية والعسكرية فى هذا العصر تلك الحرب الداخلية التى دامت مدة سبعة أعوام وكان الزعيمان المجليان فيها هما الوزيرين المشهورين باسم شاور وضرغام، وقد كان لاختلاف الوزراء الفاطميين على خلفائهم — من ناحية — وتشاحن أفراد البيت الحاكم فيما بينهم من الفاطميين أنفسهم — من ناحية أخرى — أكبر عامل فى التعجيل بزوال حكم الفاطميين .

وإليك من صور الخلاف والتشاحن الذى ساد بين خلفاء الفاطميين ووزرائهم فى القرن السادس الهجرى ، على سبيل المثال ما ذكره ابن تغرى بردى وصاحب مرآة الزمان وغيرهما من ثقات المؤرخين عن الخليفة الظافر ، إذ قالوا إنه حين آلت إليه الخلافة لم يتمكن من تدبير شئون مملكته على الوجه المطلوب .

وإليك ما قاله عنه العلامة شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قرز أوغلى سبط ابن الجوزى فى تاريخه مرآة الزمان[1] : « وكانت أيامه مضطربة لحداثة سنه واشتغاله باللهو ، وكان عباس الصنهاجى لما قتل ابن سلار ، وزر له واستولى عليه ، وكان له ولد اسمه نصر ، فأطمع نفسه فى الأمر ، وأراد قتل أبيه ، ودس إليه سمًّا ليقتله ، فعلم أبوه واحترز وأراد أن يقبض عليه فما قدر ، ومنعه مؤيد الدولة أسامة ابن منقذ — وقبح عليه ذلك وقال : إن فعلت هذا لم يبق لك أحد وينفر الناس منك ، فشرع أبوه يلاحظه — يعنى الوزير عباس يلاطف ابنه نصر — وقال له عوض ما تقتلنى اقتل الظافر ، وكان نصر ينادم الظافر ويعاشره . وكان الظافر يثق به وينزل فى الليل إلى داره متخفياً . فنزل ليلة إلى داره وكانت بالسيوفية داخل القاهرة ومعه خادم له ، فشربا ونام الظافر فقام نصر فقتله ورمى به فى بئر فلما أصبح عباس — يعنى الوزير أبا نصر — جاء إلى باب القصر يطالب الظافر ، فقال له خادم القصر ابنك يعرف أين هو — قتله — فقال عباس : ما لابنى فيه علم وأحضر أخوى الظافر وابن أخيه فقتلهم صبراً بين يديه ، وأحضر أعيان الدولة وقال : إن الظافر ركب البارحة فى مركب فانقلبت به فغرق . ثم أخرج عيسى ولد الظافر فتعرفوا على عباس وابنه ، وثار الجند والعبيد وأهل القاهرة ، وطالبوا بثأر الظافر من عباس وابنه نصر فأخذ

---

(١) النجوم الزاهرة : ص ٢٨٨ .

عباس وابنه نصر ما قدرا عليه من المال والجواهر وهربا إلى الشام، فبلغ الفرنج فخرجوا إليهما وقتلوا عباساً وأسروا ابنه نصراً ، أو قتل نصر فى السنة الآتية .

وذهب ابن القلانسي إلى خلاف هذا فقال: وكان الظافر قد ركن إليهم—يعنى أخويه وابن عمه — وأنس بهم فى وقت مسراته فاتفقوا عليه واغتالوه، وذلك فى يوم الخميس سلخ صفر وحضر العادل عباس الوزير وابنه ناصر الدين نصر وجماعة من الأمراء والمقدمين للسلام على الرسم فقيل لهم إن أمير المؤمنين ملتاث الجسم فطلبوا الدخول إليه فمنعوا فألحوا فى الدخول بسبب العيادة فلم يمكنوا فهجموا ودخلوا القصر وانكشف أمره فقتلوا الثلاثة وأقاموا ولده عيسى وهو ابن ثلاث سنين ولقبوه بالفائز بنصر الله وبايعوه، وعباس الوزير إليه تدبير الأمور »[١] .

ومهما يكن من أمر فالأخبار متضاربة فى سبب قتل الخليفة الفاطمي ، ولم يهتد التاريخ إلى الباعث الذى قتل من أجله الظافر ، غير أنه من الواضح البيِّن أن حالة البلاد ساءت وتردت بعد قتله واضطربت الأمور واجتمع رجال القصر وسيداته وسيدات البلاط يفكرون فيما حل بهم من التدهور والارتباك ، فوقع الاختيار على طلب طلائع بن رزيك إلى مصر، فكتبوا إليه وهو حينئذ والى قوص وأسوان والصعيد يخبرونه بقتل الظافر ويستنجدونه على عباس وابنه نصر ، وأرسلت إليه أخوات الظافر بشعورهن فى كتب كلها سواد ، وكتب إليه فيمن كتب القاضي الجليس أبو المعالى عبد العزيز بن الحباب قصيدته الدالية التى أولها :

دهتنى عن نظم القريض عوَادى ... وشفَّ فؤادى شجوه المتمادِى
وأرَّق عينى والعيونُ هواجعُ ... همومٌ أقضَّت مضجعى ووسادِى
بمصرع أبناء الوصىّ وعترة الـ ... ـنبى وآل الذاريات وصادِ
فأين بنو رزيك عنهم ونصرهم ... وما لهم من منعة وذيادِ
أولئك أنصار الهدى وبنو الردى ... وسم العدا من حاضرين وبادِ
لقد هد ركن الدين ليلة قتله ... بخير دليل للنجاة وهادِ

---

(١) النجوم الزاهرة : ص ٢٩١ .

تَدَارَكْ من الإيمان قبل دثوره ... حشاشةَ نفسٍ آذنت بنفاد
وقد عاينت عيناك بالقصر يومهم ... ومصرعهم لم تكتحل برقاد[1]

وهى طويلة كلها على هذا المنوال فى معنى النجدة .

« ولما بلغ طلائع الخبر امتعض من ذلك وجمع الجموع وحشد الجنود وقصد القاهرة . ولما علم عباس أنه لاطاقة له به جمع أمره وأسبابه وأهله وخرج من القاهرة ، فلما قرب من عسقلان وغزة خرج عليه جماعة من خيالة الفرنج فاغتر بكثرة من معه فلما حمل عليهم قتل أكثر أصحابه وانهزم الباقون ، وقتل عباس وأخذت الفرنج أمواله وهرب ابن المنقذ فى طائفة إلى الشام وأسر ابنه الكبير الذى قتل ابن سلار وصار الجميع للفرنج ومن هرب مات من الجوع والعطش » .

وهذا لَعَمرِى أدل شىء على ضعف سلطان الفاطميين ، ولولا الاضطراب السياسى وضعف الحكم الفاطمى فى داخل البلاد لما استطاع الفرنجة أن يستولوا فى أوائل النصف الثانى من القرن السادس الهجرى على عدد غير قليل من الحصون والقلاع والممالك والأقاليم فى بلاد الشام وشبه جزيرة سيناء وخليج تيران . هذا على أنه قد حدث فى أيام العاضد بالله أثناء تسلط الوزير شاور على مقاليد الأمور دون الخليفة من ناحية وتعاونه مع الفرنجة والصليبيين من ناحية أخرى — أقول قد حدث فى هذه الفترة مثل الذى حدث إثر مقتل الخليفة الظافر . إذ حدث أن أرسل بعض نساء القصر الفاطمى خطابات إلى السلطان نور الدين زنكى حاكم سوريا وقتذاك يستغثن به ويستنجدنه على الوزير شاور . ويذكر المؤرخون أن نساء القصر كن يضعن أجزاء من ضفائر شعرهن فى الرسائل كما كن يصبغن كذلك قراطيس الخطابات بالسواد .

والقصد من هذه العجالة التاريخية التى تتبعت فيها أحوال الدولة الفاطمية فى القرن السادس الهجرى أن أقول إن سلطان الفاطميين قد ضعف من الناحيتين السياسية والعسكرية ، الأمر الذى أتاح لأهل السنة أن يتنفسوا فى مصر الصعداء ومن ثم استطاع ابن الكيزانى أن يجاهر فى نظمه وفى قوله وفعله بمذهبه السنى تحت سمع وبصر الخلفاء الفاطميين .

---

(١) النجوم الزاهرة : ص ٣٩٢ .

٢ — الأحوال الاقتصادية

وبعد هذا العرض الموجز للأحوال السياسية الداخلية والخارجية للدولة الفاطمية أنتقل إلى بيان الظروف الاقتصادية، فأقول إنها لم تكن أحسن حالا من الناحية السياسية بل إنها كانت أمر وأدهى . إذ أخذت الأزمات الاقتصادية وموجات الغلاء والفاقة والضنك تسود أرض وادى النيل، وذلك فى أكثر سنى القرنين الخامس والسادس الهجريين؛ وخير شيء يصور لنا ما حل بمصر فى تلك السنين من الجدب والقحط وسوء العيش ما ذكره العلامة المقريزى فى كتابه — إغاثة الأمة بكشف الغمة — وإليك نص ما قال(١) :

« وقع غلاء فى خلافة المستنصر ، ووزارة الوزير الناصر لدين الله أبى محمد الحسن بن على بن عبد الرحمن اليازورى، وسببه قصور النيل فى سنة أربع وأربعين وأربعمائة » . وبعد ذلك قال :

« ثم حدث غلاء فى أيام الخليفة الآمر بأحكام الله ، ووزارة الأفضل . بلغ القمح فيه كل مائة أردب بمائة وثلاثين ديناراً. فتقدم الخليفة إلى القائد أبى عبدالله ابن فاتك الملقب بعد ذلك بالمأمون البطائحى — أن يدبر الحال . فختم على مخازن الغلات . وأحضر أربابها وخيرهم بين أن تبقى غلاتهم تحت الختم إلى أن يصل المغل الجديد أو يفرج عنها وتباع بثلاثين ديناراً كل مائة أردب . فمن أجاب أفرج عنه . وباع بالسعر المذكور . ومن لم يجب أبقى الختم على حواصله . وقدر ما يحتاج إليه الناس فى كل يوم من الغلة ، وقدر الغلال التى أجاب التجار إلى بيعها بالسعر المعين . وما تدعو إليه الحاجة بعد ذلك بيع من غلات الديوان على الطحانين بالسعر فلم يزل الأمر على ذلك إلى أن دخلت الغلة الجديدة فانحطت الأسعار . واضطر أصحاب الغلة المخزونة إلى بيعها خشية من السوس . فباعوها بالنزر اليسير ، وندموا على ما فاتهم من البيع بالسعر الأول » .

---

(١) انظر المقريزى — إغاثة الأمة بكشف الغمة — طبع بمصر سنة ١٩٥٦ ، ص١٧ إلى ص ٢٨ .

وبعد ذلك قال أيضاً :

« ثم وقع غلاء شنيع، وقحط ذريع ؛ فى أيام الحافظ لدين الله ووزارة الأفضل ابن وحش ، إلا أنه لم يستمر ، فإن الأفضل المذكور كان قد ركب إلى الجامع العتيق بمصر ، وأحضر كل من يتعلق به ذكر الغلة . وأدب جماعة من المحتكرين ومن يزيد فى الأسعار . ووظف عليهم القيام بما يحتاج إليه فى كل يوم . وباشر الأمر بنفسه . وأخذ فيه بالحد ، فلم يسع أحد خلافه . ولم يزل الحال كذلك إلى أن منّ الله تعالى بالرخاء وكشف عن الناس ما نزل بهم من البلاء . إن ربى لطيف لما يشاء ، إنه هو العليم الحكيم » .

وقال أيضاً :

« ثم وقع غلاء فى أيام الفائز ،بوزارة الصالح طلائع بن رزيك . بلغ فيه الأردب خمسة دنانير لقصور ماء النيل عن الوفاء ، وكان بالأهراء من الغـــلات ما لا يحصى ، فأخرج جملة كثيرة من الغلال وفرقها على الطحانين وأرخص سعرها ومنع من احتكارها . وأحس الناس ببيع الموجود منها . وتصدق على جماعة من المتجملين والفقراء بجملة كثيرة . وتصدق سيف الدين حسين وغيره من الأمراء وأرباب الجهات بالقصر ، ما نفس عن الناس ، ولم يستمر الحال على ذلك — سوى مدة يسيرة حتى فرج الله ، وهجم الرخاء » .

هذا وليس القصد هنا أن نتتبع الظروف والأحوال الاقتصادية التى مرت بها مصر فى ظلال الدولة الفاطمية ، وإنما القصد كل القصد أن نقول إن سوء الأحوال الاقتصادية وكثرة النوائب والملمات التى كانت تنزل بالأمة المصرية أثناء حكم الفاطميين جعلت المصريين يتشككون فى صحة العقيدة الإسماعيلية ، وبخاصة ما كان منها منوطاً بالخليفة ، إذ كان دعاة الإسماعيلية يشيعون بين الناس أن الخليفة هو المتصرف وهو الذى يغيث الناس وقت الشدائد ويرزقهم عندما تضيق سبل العيش وهو الذى يبرئ المرضى ويطعم الجائعين ويقضى حاجات السائلين ، ومصداق ذلك كله قول ابن هانى الأندلسى يمدح الخليفة المعز لدين الله الفاطمى :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار　　فاحكم فأنت الواحد القهار

أقول إن ضنك العيش وسوء الأحوال الاقتصادية وكثرة الملمات وتعدد النازلات جعل المصريين يشكون فى صحة تعاليم الباطنية ، وأن يأخذوا بالتالى فى البحث عن الإله الحقيقى الذى هو وحده يستطيع أن يكشف عنهم الضر وينقذهم من سوء ما هم فيه ، وقد وجدوا مايبتغونه فى مذهب أهل السنة والجماعة . ومن ثم ألفيناهم يتجمعون فى شكل طلاب أو مريدين حول ابن الكيزانى .

٣ ــ الأوضاع الاجتماعية

كانت مصر تنقسم فى أوائل حكم الفاطميين إلى ثلاث طبقات هى :

الطبقة الأولى : طبقة الخليفة وأفراد بيته .

والطبقة الثانية : أرباب الدولة وأعضاء الجيش وكان أكثرهم من المغاربة .

والطبقة الثالثة : هى الرعية وهم سكان مصر المستقرون فيها قبل مجىء الفاطميين من مسلمين ومسيحيين .

وفى أخريات الدولة الفاطمية انضاف إلى الطبقات الثلاثة المذكورة طبقة جديدة هى جماعة السودان حيث كان الخلفاء الفاطميون قد أخذوا فى أخريات عهدهم يستعينون بقوات من السودانيين والأحباش .

فقد ذكر أبو شامة المقدسى فى كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين أنه كان أيام صلاح الدين الأيوبى ١٠٠ ألف مقاتل سودانى يحرسون القصر الفاطمى .

وقد كانت الظروف والأحوال الاقتصادية والاجتماعية والخلقية متفاوتة غير متكافئة بين تلك الطبقات .

* * *

هذا والكلام فى الأوضاع الاجتماعية متشعب ومجال البحث والدرس فيها متسع فسيح ، ولو كنت أحد فلاسفة الاجتماع أو مؤرخيه لكتبت فى هذا المقام مئات الصفحات ولقضيت فى سبيل البحث والتحقيق فى هذا الصدد عدة سنوات .

ولكنى لست فى هذا البحث بالمؤرخ ولا بالفيلسوف ، وإنما أنا فى الحقيقة وواقع الأمر مؤرخ أدبى ، ومؤرخو الأدب والشعر يأخذون من دراسة عصر الشاعر

– فى مختلف نواحيه السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية – مايكفى لفهم نفسية الشاعر وتبين أطوار حياته وبالتالى يأخذون من دراسة عصره ما يعين على تفهم شعره وإدراك معانيه . لذلك كله أمسكت عنان القلم عن الإفاضة فى دراسة عصر ابن الكيزانى فى مختلف مظاهره وتعدد جوانبه ، إذ أرى أن الأجدر بى أن أجمل القول وأوجز الكلام فى الظروف السياسية والعسكرية والأحوال الاجتماعية والفكرية ، والأوضاع الاقتصادية والأمور الخلقية، من حيث إنها كانت عوامل وأسباباً فى اختفاء الشعر الصوفى من على المسرح الأدبى المصرى فى القرن الخامس الهجرى . ثم عودته إلى الظهور فى ربوع وادى النيل من جديد فى القرن السادس ، على يدى رائد الطائفة الكيزانية .

الفصل الثانى

عوامل اضمحلال الشعر الصوفى فى مصر

فى القرن الخامس الهجرى وأسباب عودته إلى الظهور فى القرن السادس

بناء على ما قدمناه فى الفصل السابق نذكر هنا أنه قد خبت شعلة الشعر الصوفى وانطفأت جذوته فى القرن الخامس الهجرى، وذلك لأن الفاطميين كانوا قد عملوا على نشر مذهبهم فى ربوع مصر ، وحملوا الناس بشتّى الوسائل ومختلف الأساليب على اعتناقه، فى حين بذلوا الجهد فى سبيل إضعاف المذاهب الإسلامية الأخرى. لذلك وجدنا أهل الفقه والتصوف يختفون من مصر طوال هذا القرن، على حين وجدناهم ينشطون فى بلاد المغرب والأندلس وفى العراق والموصل وفى بلاد نيسابور وبخارى وخراسان، وذلك لأن أهل مصر كانوا قبل حكم الفاطميين على مذهب أهل السنة والجماعة ، ولست أقول هذا جزافاً أو مبالغة،لا بل إنى قلت ما قلت عن تثبت واستيقان ، فقد تصفحت أكثر كتب التراجم والطبقات الخاصة كالكواكب الدرية لعبد الرؤوف المناوى، وطبقات الشافعية لعبد الرحيم الإسناوى، ولواقح الأنوار فى طبقات الأخيار للشعرانى ، وطبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين السبكى ، وطبقات الشافعية لابن قاضى شهبة، والطالع السعيد لكمال الدين الأدفوى. وطائفة أخرى من كتب التاريخ والتراجم العامة كالوافى بالوفيات للصفدى ، ووفيات الأعيان لابن خلكان، والنجوم الزاهرة، والمنهل الصافى ، وكلاهما لابن تغرى بردى، وفوات الوفيات، وعيون التواريخ ، وهذان كلاهما لابن شاكر الكتبى ، وتاريخ مصر لابن إياس، والبداية والنهاية لابن كثير ، ومن كتب الشعر والشعراء والأدب والأدباء أذكر : الخريدة للعماد الأصفهانى ، ومعجم الأدباء لياقوت، وخزانة الأدب لابن حجة الحموى، وديوان الصبابة لابن أبى حجلة، والغيث المسجم فى شرح لامية العجم لصلاح الصفدى، وروضة الأدب للشهاب الحجازى ، وغير هذه وتلك كثيرة فلم أجد شاعراً صوفياً ذكر فى أى مما ذكرت على أنه كان يعيش فى مصر أثناء القرن الخامس الهجرى، ولا فقيهاً متصوفاً وإن لم يك شاعراً . فكل الذين ذكرهم المناوى والشعرانى من

المتصوفة هم من الذين ماتوا فى المائة الخامسة وكانوا يعيشون إما فى المغرب أو فى المشرق، وليس من بينهم أحد على الإطلاق كان يعيش فى مصر أثناء تلك الفترة، وكذلك الحال بالفقهاء الذين ذكرهم تاج الدين السبكى فإنى لم أجد واحداً من هؤلاء الذين ذكرهم السبكى قد مات فى مصر، وأنه كان يعيش فيها خلال تلك الفترة، وجملة القول فى هذا القرن أنه قد خلا من شعر الفقهاء الزاهدين والصوفية النظريين، فى حين أنه زخر بالشعراء، ولكن شعرهم وأدبهم لم يكن ليقال فى سبيل التصوف وذكر الأحوال والمقامات وتصوير المواجيد والانفعالات التى تعترى عادة قلوب السالكين، ولا فى سبيل الموعظة والحكمة والزهد فى الدنيا، وإنما كان يقال إما فى وصف الطبيعة والغزل والنسيب مذكراً كان أو مؤنثاً، وفى مدح الخلفاء الفاطميين وذكر آراء الشيعة الإسماعيلية وغير ذلك مما فصلناه فى غير هذا المقام.

أما القرن السادس الهجرى فقد تبدلت فيه الظروف واختلفت الأحوال وتغيرت الأوضاع السياسية والاجتماعية فى مصر، إذ أخذت الدولة الفاطمية منذ أن استهل هذا القرن تضعف وتضمحل وذلك من الناحيتين الخارجية والمعنوية، وأعنى بالخارجية هنا الناحية السياسية والعسكرية، وبالمعنوية عقيدة الشيعة الإسماعيلية بصفة عامة. وتقديس الخليفة الفاطمى بوجه خاص. فمن مظاهر ضعف الفاطميين من الناحية العسكرية انحسار سلطانهم عن الشام ومهاجمة الفرنجة أو الصليبيين لبعض القلاع والحصون والمدن المصرية أكثر من مرة وأنهم، أعنى الفاطميين، قد عجزوا عن صد هجوم الفرنجة والوقوف فى وجه الصليبيين الأمر الذى حملهم على أن يستنجدوا « بنور الدين زنكى » المرة تلو الأخرى حتى كانت النجدة الشامية الأخيرة بقيادة « أسد الدين شيركوه » والتى كان فيها « صلاح الدين الأيوبى » ذلك الرجل الذى قضى على الدولة الفاطمية، وأرجع مصر إلى الخلافة العباسية وحول أهلها من متشيعين إلى أمة تعتنق مذهب أهل السنة والجماعة، ولعل من أوضح مظاهر ضعف الدولة الفاطمية من الناحية السياسية والعسكرية فى هذا القرن انقسام السلطة (بسبب ضعف الخليفة) بين أسرتى الوزيرين « شاور وضرغام » ثم تلك الحرب الداخلية التى دارت بين هذين الوزيرين مدة سبعة أعوام.

أما مظاهر ضعف العقيدة الفاطمية فى هذا العصر ، فأهمها انقسام الدعوة إلى فرقتين « نزارية » وأخرى « مستعلية » أو « إسماعيلية » أو « الإسماعيلية الباطنية » والثانية هى « الإسماعيلية الغربية » وهى التى عرفت بالشيعة الفاطمية وسميت دولتها باسم « دولة العبيديين » تارة والدولة الفاطمية تارة أخرى . ثم تهاون الدعاة فى نشر تعاليم الفاطميين ، وتزعزع الإيمان بصحة تلك التعاليم فى صدور كثير من الوزراء وأصحاب الهيمنة والتسلط فى الدولة ، الأمر الذى جعل هؤلاء الرجال يستخفون بأمر الدعوة الفاطمية إلى درجة أن القائمين على أمر الدعوة فى مصر أرادوا أن ينقلوا مركز الدعوة من القاهرة إلى أرض اليمن ، حيث كانت تقوم دولة الصلوحيين التى كانت تتبع فى ذلك الحين الدولة الفاطمية من الوجهتين المذهبية والسياسية .

ومن مظاهر ضعف العقيدة الفاطمية ، وعدم الحرص عليها ، إنشاء الوزير « سلار » داراً للحديث بالإسكندرية ، وجعل أمر التدريس فيها إلى رجل من كبار أهل السنة وأحد أعلام حفاظ الحديث ، وأعنى به « الحافظ السلفى » وهى أول مدرسة أنشئت بعد دار العلم فى القطر المصرى . وأخيراً تلك المناقشات وضروب الجدل التى كانت تجرى فى دار العلم بين علماء الشيعة الفاطمية وشيوخ أهل السنة والجماعة ، ولولا أن الفاطميين أسرعوا بإقفال دار العلم ، وإخراج المتناظرين والمتجادلين فيها لأصبحت دار العلم التى أنشأها الفاطميون لأغراضهم الشيعية مدرسة تنتشر فيها تعاليم أهل السنة .

أما من الوجهة الاجتماعية والأخلاقية ، فإن كثيراً من رجال القصر الفاطمى وحشداً من الدعاة والمكاثرين ، قد استهانوا بالأخلاق الدينية والاجتماعية وكثيراً ما كانوا يلهون ويعبثون ، ويعقدون مجالس اللهو والشراب ويستمعون إلى الجوارى والقيان ، وبالجملة فقد كثر التحلل واستشرى الفساد بين أرباب الدولة ودعاتها ، الأمر الذى جعل المصريين يرتابون فى دعوى الفاطميين وأئمتهم ، أضف إلى ذلك ما كان ينتاب البلاد بين الحين والحين من الجدب والقحط وكثرة المجاعات بسبب انتشار الأوبئة وانخفاض ماء النيل ، وأن توسل المصريين بالأئمة الفاطميين لم يك يجديهم فى درء تلك الكوارث وهاتيك النازلات ، وذلك على خلاف ما كان

يعتقد المصريون أو ما كان يدعيه الفاطميون وشيعتهم من أن الإمام يضر وينفع ، وأنه يفعل ما يشاء، وأنه يستطيع إذا شاء تغيير مجرى القدر .

أقول : تدبر المصريون تلك الدعاوى وقاسوها بواقع الأمر فوجدوا أن الخليفة بشر ، له ما لهم من صفات العجز والضعف وعدم القدرة على تغيير مشيئة الله فراحوا يبحثون لأنفسهم عن طريق غير التشيع تكسبهم رحمة الله ، وتستدر عليهم منّه وكرمه ، فكان أن تصوفوا ، أو قل ظهر بين ربوعهم جماعة تدعو إلى تزكية النفوس وتصفية القلوب ، وتهذيب الأخلاق بغية التقرب من الله والتزلف إليه عساه أن يقيهم سوء العاقبة وينقذهم من طغيان الحدثان ، وكانت هى أول فرقة صوفية ظهرت فى مصر منذ أخريات القرن الرابع الهجرى حتى أخريات الربع الأول من القرن السادس، وقد عرفت هذه الجماعة الصوفية باسم الطائفة الكيزانية نسبة إلى رائدها — أو قل شيخها — وراسم منهجها وأعنى به أبا عبد الله محمد بن إبراهيم ابن ثابت المشهور بابن الكيزانى ، وهو موضوع الدراسة فى هذا الكتاب .

الفصل الثالث

فنون الشعر المصرى ومدارسه

فى القرن السادس الهجرى بوجه عام

١ — موضوعاته وأغراضه

كان الشعر العربى فى مصر أثناء حكم الفاطميين يقال فى نفس الموضوعات والأغراض التى كان يقال فيها الشعر العربى فى مختلف الأقطار العربية فى الماضى والحاضر على السواء، إذ من المعروف عن الأدب العربى أنه قيل فى جميع أعصاره ومختلف بيئاته فى المدح والرثاء والفخر والحماسة والهجاء ، وفى وصف المرأة والطبيعة بما فيها من أرض وسماء وشمس و بدر وهواء وماء، وفى وصف النباتات والأزهار والحدائق والأنهار ، وفى ذكر الجآذر والظباء والأشجار والأطيار ،ثم فى تصوير ما تنفعل به النفس من أحوال عاطفية ومعان فكرية واعتقادية ، وأعنى بالحالات العاطفية مايعتور القلب من انفعالات وأحاسيس شعورية وجدانية تحدث للشاعر أو الأديب بسبب ما يصادفه فى حياته من مسرات وأحزان ولذات وآلام ومن أفراح وأتراح ،وأقصد بالمعانى الفكرية تلك الآراء والنظريات التى يستخلصها الشاعر أو الأديب من تجاربه ومشاهداته لما يقع فى هذه الحياة من نوائب ومصائب وكوارث ونازلات فردية أو جماعية مما يرد العقل بعضه إلى غائلة الدهر وطغيان الحدثان وبعضه الآخر إلى سوء أعمال بنى الإنسان ، وذلك كتلك الحكم والأمثال التى وجدناها فى شعر زهير وطرفة قبل الإسلام، وفى شعر بشار ورؤبة وغيرهما فى العصر الأموى، وعند أبى العتاهية وأبى تمام ثم المتنبى وأبى العلاء فى العصور العباسية .

وأما المعانى الاعتقادية فقد عـنَـيت بها تلك الآراء الدينية التى ضمنها الشيعة والخوارج أشعارهم فى العصر الأموى ثم الشيعة والزنادقة وأهل السنة والمتصوفة فى

العصور العباسية المختلفة فى شتى البقاع الإسلامية فى العراق والشام ومصر وخراسان وغيرها من الأقاليم والبلدان .

أقول إن الشعر المصرى كان يقال أيام الفاطميين فى جميع ما ذكرناه من موضوعات ومعان وأغراض، إذ تحدث الشعراء فى زهو وافتخار عن انتصارات جيوش المعز لدين الله الفاطمى ثم عما أحرزه الخلفاء من بعده من انتصارات فى مختلف ربوع الشام على ولاة بنى العباس من جهة وانتصاراتهم على الفرنجة والصليبيين فى أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس من جهة أخرى .

ثم أنشد المصريون أشعارهم فى وصف النيل وما كان وقت ذاك على ضفافه من حدائق ومتنزهات وفى وصف الرياض والبساتين وفى الخمرة ومجالس الشراب وما إلى ذلك من أدوات الشراب وأوعيته كالكأس والطاس والقنانى والدنان وفى الغزل بالمذكر والمؤنث وفى مدح الأمراء والوزراء وفى الذم والهجاء وفى عقيدة الشيعة الإسماعيلية مما نجده واضحاً فى شعر ابن هانئ الأندلسى والمؤيد فى الدين الشيرازى، هذا والقصد مما تقدم أن أقول إن الشعر المصرى أيام الفاطميين لم يأت بجديد فى موضوعاته وأغراضه من حيث الصورة الكلية أو الإطار العام . أما المعانى التفصيلية والصور الجزئية والأغراض الفردية فإنها كانت جديدة بوجه عام وذلك تبعاً لتجدد المرئيات والمشاهدات وتطور المذاهب والمعتقدات ، فمثلا وصف الساقية التى تدور لتنقل ماء النيل إلى الرياض والبساتين صورة جديدة ، ووصف ابن هانئ الأندلسى المعز لدين الله بأنه الواحد القهار جديد كذلك أيضاً إذ أن هذه الصفة بالذات وما إليها من عقائد الفاطميين لم تك إحدى تلك النظريات التى تحدث عنها الشيعة فى أشعارهم أيام بنى أمية ولا فى عهد بنى العباس وكذلك صورة الساقية فإنها لم يك لها وجود لا هى ولا غيرها من مظاهر الطبيعة المصرية وأرض وادى النيل عند شعراء العرب الآخرين لأن كل شاعر إذا وصف فإنه يصف البيئة التى يعيش فيها والأشياء التى يراها والأمور التى يشاهدها .

هذا على أن شعراء الفاطميين قد طوروا عدداً من فنون الشعر من حيث الصياغة والمضمون وذلك كفن الإجازة والتمليط .

٢ – فن الإجازة والتمليط

أقول قد طوّر شعراء هذا العصر فن الإجازة ، وهو أن يقول شاعر شطر بيت فيتمه الآخر ، أو بيتاً وربما بيتين ثم ينشد الثانى مثلما أنشد الأول من نفس البحر والقافية ، بحيث يكون فى شعر الثانى تمام المعنى الذى أنشد فيه الأول. ويظهر تطوير المصريين لهذه الإجازة الشعرية التى كان يعقد لها الشعراء المجالس والندوات بقصد اختبار ملكات الشعراء ومعرفة أيهم أقدر على ارتجال الشعر ، أقول يظهر تطوير المصريين لهذا العمل الأدبى فى وجهين : الأول هو أن شعراء هذا العصر ونقاده اصطلحوا على تقسيم الإجازة إلى نوعين : أحدهما إجازة معاصر لمعاصر ، والثانى إجازة المعاصر لشاعر قديم . والوجه الثانى هو أن المصريين جعلوا للإجازة شروطاً وتقاليد لم تك معروفة من قبل بحيث أضحت الإجازة فى هذا العصر تغاير فى مفهومها تلك التى تعارف عليها الشعراء السابقون، وقد أدرك شعراء هذا العصر ونقاده ما بين صنيعهم وصنيع السابقين من وجوه الخلاف ، فاصطلحوا على تسمية صنيعهم هذا بالتمليط .

وقد شرح ابن ظافر هذا اللون من الرياضة الشعرية فقال : « هو أن يجتمع شاعران فصاعداً على تجريد أفكارهم وتجريد خواطرهم فى العمل فى معنى واحد » فمن تعريف ابن ظافر للتمليط نتبين الفرق بينه وبين الإجازة بمعناها القديم إذ أن التمليط مشروط فيه تهيؤ الشعراء له وسبق علمهم بانعقاد المجلس الذى تم فيه تلك المباراة الشعرية، فى حين كانت الإجازة فيما مضى تجىء على غير علم سابق من الشاعرين المستجازين . فمن ذلك على سبيل المثال ماذكره على بن ظافر من أنه اجتمع هو والقاضى الأغر أبو الحسن على بن المؤيد الغسانى يوماً بالرصد فرأيا شعاع الأصيل فوق بياض الماء ، فقال، أعنى ابن ظافر ، أذكت الشمس على الماء لهب . . . وطلب من الأغر إجازة هذا القول فقال : فكست فضته منها ذهب . . .

فها أنت ذا ترى أن الشاعرين قد التقيا على غير موعد وأن الإجازة وقعت بينهما دون ما تهيؤ لها ومن غير سبق تفكير .

على أن الإجازة والتمليط والمطارحة فى الشعر لم تك مقصورة فى هذا العصر على فئة من الشعراء دون أخرى ، بل كان جميع الشعراء محترفين وغير محترفين ، متصوفين وغير متصوفين ، يضربون بسهم وافر فى هذا العمل الأدبى .

٣ ـ فن الفكاهة

ومن الفنون التى طورها شعراء هذا العصر وبرزت فيه شخصيتهم بكل ما فيها من خصائص الزمان والمكان : الفكاهة ـ وهى تقوم على عمق الفكرة وسرعة البديهة وفرط الذكاء من جهة وعلى القدرة بالتلاعب فى الألفاظ . . . أو بالأحرى اصطناع التورية من جهة أخرى ، والمصريون بطبيعتهم فكهون يكثرون من التملح والتظرف والتنكيت . . .

وإليك ـ مثلا ـ مما نظمه شعراء هذا العصر على سبيل التفكه والمداعبة قول الأسعد بن مماتى فى رجل رآه بدمشق :

حكى نهرين ما فى الأرض من يحكيهما أبدا
حكى فى خلقه ثَوْرِى وفى أخلاقه بَرَدَا

فالشاعر هنا كما ترى يصف أخلاق هذا الرجل الدمشقى بالبرود الشديد، وهو وصف ساخر أراد به الشاعر أن يضحك الناس من ذلك الإنسان .

على أن التفكه والتظرف فى الشعر لم يك وقفاً على جماعة دون أخرى من شعراء هذا العصر بل أقول إنهم جميعاً مارسوا ذلك الفن سواء منهم من غلبت عليهم صفة الشعر والأدب أو من اصطبغوا بالتدين فقهاء كانوا أم متصوفين .

٤ ـ مدارس الشعر فى هذا العصر

ذهب بعض الباحثين إلى أن مدارس الشعر أيام الفاطميين كانت ثلاثاً هى : مدرسة العقائد وهى التى كان شعراؤها ينشئون قريضهم فى مدح الخلفاء الفاطميين مضمنين إياه آراء الشيعة الإسماعيلية ومصطلحاتهم وذلك كشعر ابن هانئ الأندلسى والمؤيد فى الدين الشيرازى . والثانية مدرسة السهولة والرقة وهى التى كان شعراؤها يختارون فى قريضهم أوضح الأساليب ويستعملون أسهل الألفاظ . ولا يتكلفون فى التعبير ولا يبهمون فى المعنى ، بل كانت عباراتهم سلسلة سهلة ومعانيهم واضحة رقيقة وذلك كأشعار الأمير تميم وأبى الرقعمق وابن وكيع التنيسى . والثالثة هى ما أطلقوا عليها اسم مدرسة الكتاب ، وذلك عبارة عن شعر القضاة وكتاب الدواوين،

وهؤلاء كلفوا بالصنعة واستكثروا فى شعرهم من المحسنات. وقد زعم أهل هذا الرأى أن تلك المدارس جميعاً قد استمرت فى العصر الأيوبى على ما كانت عليه أيام الفاطميين بكل ما لها من خصائص فنية ومعان وأغراض وبنفس الطرق والأساليب التى كانوا يصطنعونها فى تصوير تلك المعانى وشرح هاتيك الأغراض. وقد تزعم فى رأيهم مدرسة السهولة والرقة أثناء العصر الأيوبى – البهاء زهير كما نسبوا مدرسة الكتاب فى هذا العصر إلى القاضى الفاضل ثم إلى خلفه ابن سناء الملك. ونحن لا نوافقهم على ذلك التقسيم لا من حيث الخصائص الفنية والأساليب التعبيرية ولا من حيث المعانى والأغراض. كما أننا لا نوافقهم كذلك على ما ذهبوا إليه من أن مدرسة العقائد ومدرسة السهولة والرقة لم يكن لهما قبل العصر الفاطمى فى الأدب العربى وجود. إذ يقررون أن الشعر المصرى امتاز أيام الفاطميين وفى عصر الأيوبيين عن الشعر العربى فى جميع أدواره وأعصاره على اختلاف بقاعه وأصقاعه بظاهرتين فنيتين، إحداهما السهولة والرقة التى هى طابع الغزليين.

أما الثانية فهى تلك النعوت الدينية التى أكثر شعراء الفاطميين من تضمينها قصائدهم التى كانوا ينشئونها فى مدح الأئمة والوزراء والتى كان قولها يعد كفراً ومروقاً من الدين فى رأى أهل السنة وجماعة المسلمين، وتلك الظاهرة كانت هى الطابع المميز لما أسموه مدرسة العقائد. وإن هذه الظاهرة قد استمرت فى الشعر الأيوبى على أنها نوع من الغلو فى الوصف والمبالغة فى نعت الممدوحين.

أقول إنى أخالف هذا البعض من الباحثين فى تقسيمهم الشعر المصرى إلى تلك المدارس المذكورة، لأن تقسيمهم هذا غير قائم على أساس سليم لا من الوجهة الفنية ولا من الوجهة الموضوعية، أما الفنية فلأن كل من أنعم النظر فى الأدب العربى منذ العصر الجاهلى حتى هذا العصر الذى نؤرخه يجد أن الشعر العربى فى جميع مراحله كان من حيث الخصائص الفنية المتمثلة فى اختيار الأوزان وانتقاء الألفاظ واصطناع الأساليب على ضربين: أحدهما غلب عليه ضخامة الأوزان وجزالة الأساوب والاستكثار من المحسنات البديعية، وقد اصطلح نقاد الأدب العربى فى القديم والحديث على تسمية هذا النوع بشعر الصنعة ونعتوا أصحابه بأنهم صناع متكلفون. وأما الثانى فقد غلب عليه خفة الأوزان وجزء البحور وقلة التفعيلات وسهولة الألفاظ والبعد عن

الصنعة والتكلف ورقة الأسلوب وقرب المآخذ ووضوح القصد وعدم التعقيد فى المعنى والبعد عن كل تكلف فى اللفظ وتعقيد فى التعبير. وقد وصف أهل الذوق السليم من نقاد الأدب العربى فى القديم والحديث أيضاً هذا النوع بأنه شعر الطبع . وقالوا عن أصحابه إنهم موهوبون مطبوعون، فمن أمثلة النوع الأول فى العصر الجاهلى شعر طرفة وزهير والأعشى ،فإن شعر هؤلاء وأمثالهم قد غلبت عليه الصنعة وكثر فيه الغريب وبعدت معانيه وسادت ألفاظه الخشونة وتعقدت فيه الأساليب . ومن أمثلة النوع الثانى فى هذا العصر أيضاً شعر النابغة الذبيانى وعمرو بن كلثوم وشعر امرئ القيس فى أكثر الأحيان، فإن الذى يقرأ شعر هؤلاء وأمثالهم يستسهل ألفاظ شعرهم على بعد الزمان والمكان ويستسيغ أساليبهم ولا يجد فى فهمها كبير عناء . ومثال شعر الصنعة فى صدر الإسلام وعصر بنى أمية أشعار الفرزدق والأخطل ومن حذا حذوهما، فإن هؤلاء جميعاً كانوا ينشدون الشعر فى أوزان ضخمة وبألفاظ فخمة وفى أساليب بها كثير من الإبهام والتعقيد، ومن أمثلة النوع الثانى فى هذا العصر — عصر بنى أمية وصدر الإسلام — عمر بن أبى ربيعة فى مكة والأحوص فى المدينة ، فإن هذين الشاعرين وأمثالهما كانوا يتخيرون لشعرهم أخف الأوزان وأسهل الألفاظ وأوضح العبارات كما أنهم قد تجنبوا التكلف فى الفن وابتعدوا عن الإبهام فى الأسلوب والتعقيد فى التعبير كما استكثروا كذلك من جزء البحور وقللوا من تفعيلات الأوزان، وفى العصر العباسى وجدنا السهولة والرقة والوضوح والسلامة من التعقيد والخلو من الصنعة والتكلف فى شعر أبى نواس وأبى الحسين الخليع وغير هؤلاء كثير . أما شعر الصنعة والكلف بالمحسنات البديعية واصطناع التعقيد فى التعبير والالتواء فى الأساليب والإبهام فى القصد والاعتساف فى المعنى فقد وجدنه أثناء هذا العصر على كثرة عند أبى تمام الذى بلغ من إغرابه فى اللفظ وتعقيده فى الأسلوب أن قال له ذات مرة أحد الأمراء وكان ذواقة للشعر : لم لا تقول ما يُفهم يا أبا تمام؟ فقال له ولم لا يفهم ما يقال . .

والواقع أن جواب أبى تمام فيه مغالطة ومكابرة وأن الذى نقده كان على صواب فى نقده إياه لأن الكلام الغامض فى الحقيقة مخالف لطبيعة العمل الفنى إذ أن العمل الفنى لا يكون بحق عملا فنياً إلا إذا اتسم بالوضوح ، أما كونه محتملا

معانى عدة بحيث لو فهم بكل منها على حدة لكان مستقيما فذلك غير داخل فى باب التعقيد والإبهام وإنما هو فى رأيى دليل على بلاغة الشاعر وقدرته على الخلق والإبداع . ومثل أبى تمام فى التكلف والصنعة والإغراب فى اللفظ والإبهام فى المعنى أبو الطيب المتنبى فى أكثر أشعاره ، ومثلهما كذلك كان أبو العلاء المعرى فى القرن الخامس الهجرى .

والقصد من كل ما قدمناه أن نقول إن الشعر العربى انقسم فى جميع مراحله وأعصاره على اختلاف بيئاته وأقطاره من حيث الخصائص الفنية التى مناطها الأوزان والألفاظ وطرق التعبير إلى مدرستين اثنتين فقط هما مدرسة الطبع ومن أهم خصائصها سهولة اللفظ وخفة الأبحر ورقة المعنى وسلاسة التعبير ، والثانية هى مدرسة الصنعة ومن أهم خصائصها ضخامة الأوزان وجزالة الألفاظ وكثرة المحسنات ، وعلى كل من منهجى هاتين المدرستين جرى فريق من شعراء المصريين أيام الفاطميين وفى عصر بنى أيوب ، أعنى أن شعراء الفاطميين والأيوبيين انقسموا إلى مدرستين من حيث الخصائص اللفظية والمقاييس الفنية ، وقد اصطلحت على تسمية إحداهما بمدرسة الصنعة والبديعيات ، والأخرى سميتها مدرسة السليقة والطبع ، فكل شعر ضخمت أوزانه وجزلت ألفاظه وكثرت فيه المحسنات البديعية والمصطلحات العلمية كان فى رأينا جارياً على منهج مدرسة الصنعة والبديعيات سواء أكان قائله ممن نسبوا إلى مدرسة الكتاب أو إلى مدرسة السهولة والرقة أو إلى مدرسة العقائد حسبما كان عليه اصطلاح الذين هم سبقونى بالكتابة فى هذا المضمار .

وكل شعر سهلت ألفاظه وخفت أوزانه ورقت معانيه ولم نشتم منه رائحة التكلف والاعتساف ولم نجد فيه شيئاً من تعقيد الأسلوب وإبهام التعبير فإننا ننسبه إلى مدرسة السليقة والطبع سواء أكان قائله المؤيد فى الدين أم القاضى الفاضل وابن سناء الملك أم البهاء زهير وابن مطروح أم عمر بن الفارض ، وذلك لأنه اتضح لنا من تتبعنا أحوال شعراء ذينك العصرين وما خلفوه من قصائد وأشعار أنه لم يخل شاعر أيًّا كانت صبغته من التأثر بغيره والتأثير فيه وأن كلا من أعلام المدرستين خالف فى بعض قصائده طابع مدرسته بحيث لو قرأنا تلك القصيدة ولم نعرف أن قائلها هو القاضى الفاضل مثلا لنسبناها على البديهة إلى البهاء زهير أو إلى غيره من شعراء السليقة

والطبع . وهكذا وجدنا الحال عند أكثر شعراء هذا العصر الذى ندرسه فإنه ما من أحد منهم إلا قد وجدنا له شعراً خالف فيه منهجه وطابع مدرسته بوجه عام . . .

أما عن مدرسة العقائد والتى ادعى أنها وجدت فقط فى مصر أيام الفاطميين وأن خصائصها الفنية ظلت على ما هى عليه فى شعر الأيوبيين فإننا نرفض ذلك ولا نقبله بحال من الأحوال وذلك لأن المصطلحات الشيعية الكيسانية والآراء الإمامية وغير ذلك من الأفكار الدينية قد ظهرت فى الشعر العربى منذ العصر الأموى فهذا كثيّر عزة يشرح عقيدة الشيعة الكيسانية ويبين رأيهم فى الإمامة إذ يقول :

ألا إن الأئمة من قريش ولاة الحق أربعة سواء
علىّ والثلاثة من بنيه هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسبط سبط إيمان وبر وسبط غيبته كربلاء
وسبط لا يذوق الموت حتّى يقود الجيش يقدمه اللواء
تغيب لا يرى فيهم زماناً برضوى عنده عسل وماء

فهذا شاعر شيعى قد ضمن هذه الأبيات كما ترى عقيدة الشيعة الكيسانية وهى تتلخص فى أن الإمامة محصورة فى على والثلاثة من بنيه هم الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية . . . وأن الإمامة انتقلت فعلا من على إلى الحسن ثم منه إلى الحسين ومن الحسين إلى محمد بن الحنيفة ، وأن محمداً هذا لم يمت ، ولكنه تغيب عن الأنظار حيث أقام فى مكان مجهول بجبل رضوى وأنه سوف يظل حيًّا يرزق حتّى يأذن الله له بالظهور فيعود على رأس جيش لكى يهزم دولة الظلم والفساد ، ويملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جوراً ، وهكذا ظلت الشيعة ثم المتصوفة وكثير من أهل الزندقة والإلحاد وأصحاب النظريات والعقائد والنحل على وجه العموم يضمنون قصائدهم ما كانوا يؤمنون به أو يعتقدونه من نظريات وآراء وذلك طوال العصور المتلاحقة منذ صدر الإسلام حتّى العصر الذى ندرسه .

والقصد من كل ما أسلفناه أن نقول إن مدارس الشعر المصرى فى هذا العصر الذى ندرسه ليست على ما ذكره بعض الباحثين المحدثين لا من حيث التسمية ولا من حيث التقسيم إذ نرى أن شعراء ذلك العصر انقسموا من حيث المعانى والأغراض

أو الموضوعات التي كانوا ينشئون فيها القريض إلى طرق وطوائف متعددة . فمنهم الشيعة الإسماعيلية وهؤلاء ظلوا حتى نهاية القرن السابع وأوائل القرن الثامن الهجريين في أنحاء متفرقة من المدن والأقاليم كإدفو وإسنا وأسوان وحتى مصر والقاهرة ، فقد روى لنا الإدفوى في طالعه والصفدى في وافيه وغيرهما أشعار كثير من الأعلام الذين ماتوا في أخريات القرن السابع وأوائل القرن الثامن ، وفي تلك الأشعار مصطلحات فاطمية وآراء إسماعيلية ، ومنهم المتصوفون وقد كانوا في هذا العصر متحدين غير مختلفين مثقفين غير متنافرين فيما بينهم وبين الفقهاء الزاهدين إذ لم نجد بين الصوفية والفقهاء أى تشاحن أو تباغض في القرن السادس الهجرى ، وذلك راجع فيما أعتقد إلى أن المتصوفين والفقهاء الزاهدين كانوا متعاونين فيما بينهم على الوصول إلى هدف واحد جمع بين قلوبهم ووحد آراءهم وأعنى بذلك مقاومة المذهب الإسماعيلى ، ومن ثم وجدنا شعر المتصوفين والفقهاء الزاهدين يختلط بعضه ببعض أثناء القرن السادس الهجرى وذلك من حيث المعانى والمضامين ومن حيث الأساليب وطرق التعبير .

هذا على أن شعر التصوف لم تتعدد فنونه ولا اختلفت تياراته اختلافها الذى وجدناها عليه في القرن السابع الهجرى . أعنى أن فنون الشعر الصوفى لم تكن متعددة إبان القرن السادس الهجرى من حيث الاتجاه الروحى ، بل أقول إن الشعر الصوفى من هذه الناحية كان يعتبر فناً واحداً إذ أننا لم نجد بين من تصوفوا في مصر أثناء ذلك القرن فرقاً وطوائف تتعدد وتختلف تبعاً لتعدد اتجاهاتها الروحية واختلاف تعاليمها الصوفية ، وإنما كانوا من حيث الاتجاهات الروحية والتعاليم الصوفية والمراسيم الخلقية يعتبرون في الحقيقة وواقع الأمر طائفة واحدة ، وبناء على هذا نستطيع أن نقرر هنا أن الشعر الصوفى المصرى كان في القرن السادس الهجرى غير متعدد الفنون ولا مختلف التيارات بل كان في واقع أمره ووفق ما وجدناه عليه في القصائد والأشعار التي وصلت إلينا مصطبغة بصبغة التصوف ذا منهج أدبى واحد وإن انقسم من حيث المعانى والمضامين ومن حيث الفكرة والغرض إلى فنين اثنين :

شعر الوعظ والإرشاد ، وفن الغزل والحب الإلهى . وهناك مدرسة ثالثة تحدثت في شعرها عن واقع الحياة المادية إذ وصف أفرادها طبيعة الأرض ومشاهد السماء وصوروا بدائع الخلائق وجمال الكائنات ، وقد اقتصر بعضهم على وصف نوع من

أنواع الكائنات كالمرأة فأبرزوا مفاتنها وذكروا محاسنها وهؤلاء عرفوا باسم الغزليين أو الغراميين، وآخرون كلفوا بالحدائق والأنهار والأشجار والأطيار وتغنوا بجمال، الزهور والورود ووصفوا الشمس وقت الأصيل وصوروا أحاسيسهم وما انفعلت به نفوسهم من مختلف مناظر الأرض والسماء وهؤلاء عرفوا باسم وصاف الطبيعة، ونحن نطلق على هذه المدرسة بكل مافيها من فنون واتجاهات اسم مدرسة الطبيعة والغزل .

هذا من حيث موضوعات الشعر واتجاهاته الفكرية ، أما من حيث القوالب اللفظية والمقاييس الفنية فإن شعر هؤلاء الشعراء جميعاً قد انقسم فى رأينا إبان العصر الفاطمى إلى مدرستين نسمى إحداهما مدرسة الصنعة والبديعيات وقد تزعم هذه المؤيد فى الدين الشيرازى ثم مضى على أثره فى أخريات القرن السادس الهجرى القاضى الفاضل . والثانية نطلق عليها اسم مدرسة السليقة والطبع وقد تزعم هذه فى العصر الفاطمى الأمير تميم وابن وكيع التنيسى ثم قفى على أثرهما فى العصر الأيوبى البهاء زهير .

الباب الثانى

حياة ابن الكيزانى

الفصل الأول

اسمه ونسبه . كنيته ولقبه

اختلف الذين ترجموا لابن الكيزانى فى الأسلوب والعبارة التى أوردوا بها اسمه ونسبه وكنيته ولقبه ، وذلك من حيث القصر والطول ، ومن حيث التقديم والتأخير .

فهذا العماد الأصفهانى – وهو ممن عاشوا وماتوا فى القرن السادس الهجرى – يقول فى ذكر اسمه ونسبه وكنيته ولقبه ، ما نصه(1) :

« الفقيه ابن الكيزانى المصرى الواعظ الشافعى أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن ثابت بن فرج الأنصارى ، المعروف بابن الكيزانى » .

أما أبو محمد يوسف سبط أبى الفرج عبد الرحمن بن الجوزى ، المتوفى سنة ست وخمسين وستمائة هجرية – فإنه قال فى كتابه « مرآة الزمان » أثناء ترجمته لابن الكيزانى ، ما نصه(2) :

« محمد بن إبراهيم أبو عبد الله الكيزانى » .

أما ابن خلكان ، المتوفى سنة إحدى وثمانين وستمائة هجرية – فقد قال(3) :

« أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن ثابت بن إبراهيم بن فرج الكنانى المقرى الشافعى المصرى ، المعروف بابن الكيزانى ، الشاعر المشهور » .

أما على بن موسى ، المعروف بابن سعيد المغربى ، والمتوفى سنة خمس وثمانين وستمائة هجرية ، فقد خالف كل من ترجموا لابن الكيزانى ، من الذين هم ماتوا

---

(1) العماد الأصفهانى – خريدة القصر وجريدة العصر – قسم شعراء مصر ج ٢ ص ١٨ .

(2) ج ٨ ص ١٥٧ . (3) ج ٤ ص ٨٦

فى القرن الذى مات فيه ، كالعماد الأصفهانى ، والذين هم ماتوا فى القرن الذى يليه مباشرة ، كسبط بن الجوزى ، وابن خلكان ؛ إذ جعل ابن سعيد اسم « ثابت » ، اسماً لأبى ابن الكيزانى ، كما سمى جده بإبراهيم ، واقتصر على ذلك ، إذ قال ما نصه [١] :

« أبو عبد الله محمد بن ثابت بن إبراهيم الكيزانى » .

وإذا تركنا المؤرخين ، وأصحاب التراجم ، من أهل القرنين السادس والسابع الهجريين ، إلى من صنفوا فى طبقات الرجال ، وتراجم الأعلام ، من أهل القرنين الثامن والتاسع الهجريين ، فإننا نجدهم يختلفون كذلك فى نسب ابن الكيزانى ، تبعاً لاختلاف السابقين .

فهذا العلامة صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى ، المتوفى سنة أربع وستين وسبعمائة هجرية — يوافق فى روايته سلفه ابن خلكان إذ يقول[٢] :

« محمد بن إبراهيم بن ثابت بن إبراهيم بن فرج الكيزانى » .

أما القاضى تاج الدين عبد الوهاب السبكى ، المتوفى سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة للهجرة — فإنه قد وافق فى روايته رواية العماد الأصفهانى ، إذ قال[٣] :

« محمد بن إبراهيم بن ثابت بن عبدالله بن فرج بن الكيزانى » .

أما ابن الزيات ، صاحب كتاب « الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة » ، — المتوفى سنة ٨١٤ هـ — فقد خالف كل من تقدم ، إذ قال[٤] :

« أبو عبد الله محمد بن أبى الفرج بن إبراهيم بن ثابت ، المعروف بابن الكيزانى » .

وأما الأمير أبو المحاسن ، يوسف بن أيبك ، المشهور بابن تغرى بردى ، المتوفى سنة ٨٧٤ هـ — فقد وافق فى روايته كلا من السبكى ، والأصفهانى ، وابن خلكان ،

---

(١) ابن سعيد — المغرب فى حلى المغرب — جـ ١ الخاص بمصر — طبع القاهرة سنة ١٩٥٣ .

(٢) الصفدى — الوافى بالوفيات — جـ ١ ص ١٤٧ طبع استانبول سنة ١٩٣١ .

(٣) السبكى — طبقات الشافعية الكبرى — جـ ٤ ص ٦٥ طبع القاهرة .

(٤) ابن الزيات — الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة — جـ ١ ص ٣٠٣ طبع القاهرة سنة ١٩٠٧

والصفدى ، مع اقتصاره على ذكر اسمه واسم أبيه وجده وكنيته ولقبه فقط ، إذ قال[١] :

« أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن ثابت المصرى الكيزانى » .

أما العلامة شمس الدين السخاوى ، المتوفى سنة ٩٠٢ هـ — فقد وافق فى روايته رواية سلفه ابن الزيات ، مع زيادة لقب شمس الدين ، إذ قال[٢] :

« الشيخ شمس الدين ابن عبد الله محمد بن أبى الفرج بن إبراهيم بن ثابت ، المعروف بابن الكيزانى » .

وبناء على ما أسلفناه من الروايات والأخبار المتعلقة بنسب الكيزانى ولقبه وكنيته ، أستطيع أن أقول ، إن نسبه الصحيح ، هو الذى أجمعت عليه جمهرة الثقات ، من الرواة والمؤرخين ، والجهابذة الناقدين ، والفقهاء المتأدبين ، من أهل القرن السادس والسابع والثامن للهجرة ، كالعماد الأصفهانى ، وسبط بن الجوزى ، وابن خلكان ، والصلاح الصفدى ، والقاضى تاج الدين عبد الوهاب السبكى . وإليك نسبه مستخلصاً من أقوال وأخبار كل هؤلاء :

« محمد بن إبراهيم بن ثابت بن فرج بن عبد الله ، لقبه شمس الدين ، وكنيته أبو عبد الله ، وشهرته ابن الكيزانى ، ينتهى نسبه إلى الأنصار ، ومن ثم قالوا الأنصارى ونسب إلى مصر ، مسقط رأسه ، ودار حياته ، فقيل المصرى تارة ، وقيل الكنانى تارة أخرى ، أما شهرته بابن الكيزانى ، فقد ذكروا ، أن ذلك كان نسبة إلى صناعة الكوز » .

هذا ، ولم نأخذ برواية ابن سعيد ، اومن جاء بعده ، كابن الزيات ، والسخاوى ، لأن أخبارهم عن نسب الكيزانى ، مخالفة لما اتفق عليه الرواة الثقات ، وأغلب الظن ، أن رواية ابن سعيد ، والسخاوى ، وابن الزيات ، قد دخلها جميعاً التحريف والتصحيف ، ولعل مصدر ذلك ، هم النساخ ، وليسوا — فى رأينا — هم المؤلفين .

---

(١) ابن تعزى بردى — النجوم الزاهرة — جـ ٥ ص ٣٧٦ طبع القاهرة سنة ١٩٣٥ .

(٢) نور الدين السخاوى — تحفة الأحباب وبغية الطلاب — جـ ١ ص ٣٨٥ طبع القاهرة سنة ١٩٣٧ .

الفصل الثانى

مولده ونشأته

لم يذكر أحد من الرواة والمؤرخين الذين ترجموا لابن الكيزانى ، شيئاً عن المكان والزمان الذى ولد فيه ، ولا عن فترة صباه ، الأمر الذى يجعلنا نقف حائرين ، حيال مولده ونشأته ، لا ندرى ماذا نقول .

وقد تدبرت هذه القضية مليًّا ، وأطلت فيها التفكير ، عساى أهتدى إلى شيء يلقى بصيصاً من النور ، على مولده ونشأته ، ولكن ذلك التدبر ، وهذا التفكير ، قد ذهب دون جدوى ، وكان جهداً فى غير طائل ، غير أنى أبيح لنفسى أن أقول على سبيل التخمين ، إنه ولد بالفسطاط ، وهى التى كان يطلق عليها فى زمنه ، اسم (مصر) ، وفيها نشأ وترعرع وبلغ الأشد ، وأغلب الظن ، أنه كان يلهو مع لِداته وأترابه ، ويضرب بسهمه ، فى كل ما كانوا يضربون فيه ، من ميادين اللهو ، والعبث ، فكان يستمع — مثلا — إلى القيان ، وربما شرب المدام .

وهذا الظن ، وذاك التخمين ، ليسا خلواً من الشاهد ، ولا يفتقدان — على الإطلاق — الحجة والدليل .

بل أستطيع أن أتخذ من فرط زهده حجة ، ومن صدق شعره فى الغزل برهاناً ، إذ أن المبالغة فى الزهد والتقشف ، إنما تحدث فى الغالب والكثير ، لدى من جربوا اللهو ، وارتكبوا فى صباوتهم ، كثيراً أو قليلا من الآثام .

ولا عجب ، فإن التطرف فى الزهد ، إنما ينشأ من فرط الندم ، وشدة الألم ، لما كان قد فعله الإنسان فى حياته السابقة — وبخاصة أيام الشباب — من أمور تعد فى نظر الدين ذنوباً ، وسيئات .

هذا على أن كثرة ذكر الخمر فى الشعر ، ولو على سبيل الرمز ، ينم – ولو من بعض الوجوه – عن شوق الشاعر إليها .

كما أن كثرة الغزل والتشبيب فى شعر المتصوف ، تدل – وإن فسرت بمعان باطنية – على أن ذلك الشاعر ، قد عرف فى شبابه وأيام صباه ، الحب البشرى ، وجرّب لواعجه ، وتذوق فيه طعم الوصل ، وعانى الكثير من ألم الهجران .

وإذن فإن لدينا دليلين على احتمال أنه كان أيام الصبا ، ووقت الشباب ، يلهو ويعبث ، كغيره من أبناء الأثرياء ، وأهل اليسار .

الأول : فرط زهده ، وشدة ورعه ، وغلوه فى التقشف والإخشيشان .

والثانى : كثرة ورود لفظ « الحبيب » فى شعره من جهته ، وذكره المدام فى قصائده الطوال ، من جهة أخرى .

الفصل الثالث

دراسته أو عهد التلمذة

بعد أن تحدثت عن سلوك ابن الكيزانى وأخلاقه ، فى شرخ شبابه ، وعهد صباه ، أنتقل إلى الكلام عن درسه واستظهاره ، أو طلبه العلم — على حد تعبير المتقدمين — فأقول على سبيل الظن والتخمين ، لا على سبيل الجزم والتقرير :

إنه تلقى فى جامع عمرو بن العاص بالفسطاط ، والجامع الأزهر بالقاهرة ، النحو والصرف والبلاغة وعلم الكلام والفقه وأصول الفقه والمنطق وعلوم الحديث . يدل على ذلك ، قول العماد الأصفهانى[1] :

« عالم بالأصول والفروع ، عالم بالمعقول والمشروع ، مشهود له بألسنة القبول ، مشهور بالتحقيق فى علم الأصول . وكان ذا رواية ودراية بعلم الحديث ، ومعرفة بالقديم مكون الحديث » .

فمن عبارة الأصفهانى هذه — على قصرها — ، نستدل على صحة كل ما قلناه ، إذ أن المقصود بكلمة الأصول ، هو التوحيد أو علم الكلام ، والمقصود بالفروع ، هو الفقه وأصول الفقه . وأما كلمة المعقول ، التى أوردها « العماد » ، فإنها تعنى دون شك ، المعارف الفلسفية ، والعلوم العقلية ، وذلك حسب ما اصطلح عليه الأقدمون . إذ أن علماء الإسلام السابقين ، كانوا يقسمون المعارف الإنسانية ، إلى أقسام ثلاثة هى : العلوم اللغوية ، والشرعية ، والعقلية .

أما الأولى ، فإنها تنتظم علم النحو والصرف وفقه اللغة وعلوم البلاغة .

وأما الثانية ، فإنها تشتمل على الفقه وأصول الفقه وعلوم الحديث ، التى هى عبارة عن الرواية ، والدراية ، ومصطلح الحديث ، والجرح والتعديل ، ومعرفة أحوال الرجال .

---

(١) خريدة القصر جزء ٢ ص ١٨ .

وأما الثالثة ، فقد كان يقصد بها فى تلك العصور ، المنطق والمقولات ، وعلم الكلام ، وكل الأفكار الفلسفية .

ومهما يكن من أمر ، فإن الذى لا شك فيه ، هو أن ابن الكيزانى ، كان قد بدأ حياته الدراسية — كغيره من أبناء عصره — بتعلم القرآن وحفظه ، ثم جعل يدرس الفقه ، ويروى الحديث ، مع استظهار النحو والبلاغة ، وغير ذلك من علوم اللغة .

ثم أخذ فى المرحلة الثالثة ، يتفهم مسائل التوحيد ، ومباحث الأصول ، وقواعد المنطق ، إلى غير ذلك مما كان يدخل آنذاك ، فى دائرة ما اصطلحوا على تسميته بالمعقول .

وأغلب الظن أن ابن الكيزانى ارتحل من مصر إلى بلاد الشام والموصل ومكة والمدينة وبغداد ، من أجل أخذ العلم ورواية الحديث ، شأنه فى ذلك شأن طلاب العلم فى شتى الأقطار ، وكل الأمصار .

ولست أقول هذا ظناً ، أو على سبيل التخمين ، أو ادعاء لأمر يعوزه البرهان ، ويفتقر إلى الدليل . وإنما قلت ما قلت ، مستنداً إلى ما ذكره تاج الدين السبكى ، فى ترجمته له ، أثناء حديثه عن شيوخه ومريديه ، وإليك نص ما قال[١] :

« سمع من أبى الحسن على بن الحسين بن عمر الموصلى ، وأبى على الحسن ابن محمد بن حسن الجيلى ، روى عنه جماعات ولابن المفضل منه إجازة » .

فعبارة السبكى هذه تعطى — فى صراحة ووضوح — أن ابن الكيزانى ارتحل فى طلب العلم وسماع الحديث ، وأنه اشتغل بعد ذلك بالتدريس .

---

(١) عبد الوهاب السبكى — طبقات الشافعية الكبرى — طبع القاهرة سنة جـ ٤ ص ٦٥ .

الفصل الرابع

عقيدته ومذهبه

بعد أن تحدثت عن دراسة ابن الكيزانى ، وأخذه العلم وسماعه الحديث ، أتناول بالشرح والتبيان عقيدته ومذهبه ، فأقول :

أجمع الذين ترجموا لابن الكيزانى على أنه كان شافعى المذهب ، وذلك يعنى دون شك أنه كان على مذهب أهل السنة والجماعة .

إذ أن المذاهب الأخرى – كالباطنية والإمامية والزيدية ، وحتّى المعتزلة ، لم يكن أتباعها يقلدون فى مذاهبهم الفقهية – وهى الّتى يناط بها تبيان الأحكام الشرعية ، المتعلقة بالعبادات والمعاملات – أحداً من أئمة الفقه ، الذين هم سلمت عقائدهم من كل ما من شأنه أن يخالف نصوص الكتاب والسنة ، ومنطق الإسلام واتجاهه العام ، وذلك كالشافعى ومالك وأحمد بن حنبل ، ولكن هذا الرأى ، على ما به من الصدق والصحة ، يقتضينا أن ندقق البحث ، وننعم النظر ، فى أقوال المؤرخين ، وأصحاب التّراجم ، وما أصدروه على ابن الكيزانى فى هذه القضية من أحكام ، كى لا يكون رأينا فيه مجافياً للحق ، مجانباً للصواب .

فلذلك آثرت أن أورد هنا ، آراء أصحاب التّراجم والمؤرخين فيه ، من حيث النحلة والعقيدة ، قبل أن أصدر عليه الحكم النهائى من هذه الوجهة ، فأقول :

ذكر ابن الزيات فى كتابه « الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة » أثناء ترجمته لوثاب بن الميزانى ما نصه(١) :

« مات وثاب ولم يكلم أبا عبد الله بن الكيزانى ، حين ناظره فى ترك التأويل ، فلما احتضر وثاب ، أتاه ابن الكيزانى ، فقيل له إن الشيخ بالباب ، فقال : قولوا له : هل أنت موافقه على التأويل ؟ قال : لا ! فرجع ابن الكيزانى ولم يدخل إليه » .

---

(١) محمد بن الزيات – الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة – طبع القاهرة سنة ١٠٧ م ص ٣٠٣

فهذا النص — كما ترى — يدل على أن ابن الكيزانى — كان يقول بفكرة التشبيه — وهى عقيدة اعتنقها جماعة من المسلمين — وفحواها أن الله سبحانه وتعالى يتصف بصفات تشبه صفات المخلوقين ، وذلك أخذاً من مثل قوله تعالى : « يد الله فوق أيديهم » . وقوله عز وجل كذلك : « ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » .

أما العماد الأصفهانى ، فإنه ذكر فى ترجمته لابن الكيزانى ، أنه كان يقول بقدم أفعال العباد وبالتشبيه ، مع معرفته لأصول أهل السنة وفروعهم خاصة ، وعلوم أهل الظاهر بوجه عام ، إذ قال ما نصه[١] :

« عالم بالأصول والفروع ، عالم بالمعقول والمشروع ، مشهود له بألسنة القبول، مشهور بالتحقيق فى علم الأصول ، وكان ذا رواية ودراية بعلم الحديث ، ومعرفة بالقديم مكون الحديث ، إلا أنه اعتقد مقالة ضل بها اعتقاده ، وزل فى مزلقها سداده ، وادعى أن أفعال العباد قديمة ، والطائفة الكيزانية بمصر على هذه البدعة إلى اليوم مقيمة ، أعاذنا الله من ضلة الحكم ، وزلة العلم ، وعلة الفهم ، واعتقد أن التنزيه فى التشبيه، عصم الله من ذلك كل أديب أريب، ونبيل نبيه » إلى أن قال:

« وتوفى بمصر سنة ٥٦٠ هـ — وهو شيخ ذو قبول ، وكلام معسول وشعر خال من التصنع مغسول ، ودفن عند قبر إمامنا الشافعى رضى الله عنه . والكيزانية بمصر فرقة منسوبة إليه ، ويدعون قدم أفعال العباد ، وهم أشباه الكرامية بخراسان » .

فمن قول العماد هذا ، نستطيع أن نصف محمد بن إبراهيم بن ثابت الكيزانى : بأنه جمع بين الحقيقة والشريعة ، أو علم الظاهر والباطن ، وبأنه كان متكلماً على شىء من التفلسف ، إذ زعم على حد قول العماد : « أن أفعال العباد قديمة وقال بالتشبيه » .

أما ابن سعيد : فإنه قد خالف إلى حد كبير فى وصفه ابن الكيزانى مقالة العماد . إذ قال : « أخبرنى[٢] جماعة من المصريين أنه كان من عباد الفسطاط ،

---

(١) خريدة القصر تحقيق الدكتور شوقى ضيف وأحمد أمين جزء ٢ ص ١٨ .

(٢) ابن سعيد — المغرب — ص ٩٣ .

الملازمين للقرافة وجبل المقطم . . . وكان مذهبه الاعتزال ، وهو من فضلاء المائة السادسة » .

فكلام ابن سعيد هذا ، يفيد أن ابن الكيزانى كان متكلماً على مذهب المعتزلة .

وهذا مخالف تماماً لما نسبه إليه العماد، لأن أهل الاعتزال أكثر الناس محاربة لفكرة التشبيه ، والقول بقدم أفعال العباد . . .

أما ابن خلكان[1] فقد قال عنه ، إنه : «كان زاهداً ورعاً ، وبمصر طائفة ينسبون إليه ، ويعتقدون مقالته » .

وكلام ابن خلكان هذا ، مشعر أيضاً بما صرح به فى حقه العماد ، أعنى أن ابن خلكان يرى فى ابن الكيزانى ، رأى العماد الأصفهانى ، من حيث إنه مخالف فى بعض أصول الاعتقاد، مذهب أهل السنة والجماعة . وسواء أصح عنه القول ، بقدم أفعال العباد، والتشبيه فى ذات الله وصفاته ، أم لم يصح ، بأن كان ذلك منسوباً إليه ميناً وبهتاناً، وأنه فى الحقيقة وواقع الأمر منه براء — وهذا ما أميل إليه وأرجحه — سواء أكان هذا أم ذاك ، فإن الذى لا شك فيه ، هو أن ابن الكيزانى كان مناهضاً للدعوة الشيعية، مناصراً لأهل السنة والجماعة ، الأمر الذى يجعلنا نعده أحد دعاة مذهب أهل السنة فى مصر. ولا غرو ، فقد كان ابن الكيزانى شافعى المذهب ، حذق أصول أهل السنة ، وبلغ فى تقدير الفقهاء ، مرتبة الاجتهاد المذهبى ، أعنى أنه كان مجتهداً فى إطار المذهب الشافعى ، ولم يك مجتهداً بالمعنى العام ، بحيث يصبح فى عداد الأئمة وأصحاب المذاهب، الذين يكون لهم أتباع ومقلدون ، كالشافعى ومالك وأبى حنيفة وأحمد بن حنبل .

ومما يؤيدنا فيما ذهبنا إليه، من اعتبارنا إياه أحد أعلام أهل السنة والجماعة البارزين فى مصر — أثناء القرن السادس الهجرى — كونه أخذ الحديث عن شيوخ أهل السنة ، فقد ذكر السبكى[2]، فى طبقاته أن ابن الكيزانى سمع عن

---

(١) ابن خلكان — وفيات الأعيان — جـ ٢ ص ١٨ .

(٢) عبد الوهاب السبكى — طبقات الشافعية الكبرى — طبع القاهرة جـ ٤ ص ٦٥

أبي الحسن على بن الحسين بن عمر الموصلى ، وأبى على الحسن بن محمد الجيلبي ، وروى عنه خلق .

على أن شعر ابن الكيزانى على كثرته لم يرد فيه أى معنى يخالف ما تعارف عليه أهل السنة ، بل إنه متفق فى روحه ومغزاه مع مذهبهم .

ومصداق هذا فى شعره قوله[١] :

داوم على ما أنت فيــه   فإنمــا الدنيــا عــبر
عــودت نفسى الصــبر   والأجر الجزيل لمن صبر

فابن الكيزانى فى هذه المقطوعة ، راض بالقدر والقضاء ، صابر على المحنة والبلاء ، وذلك ابتغاء مرضاة الله، والظفر منه بجزيل الثواب ، وتلك لعمرى أحوال نفس مؤمنة ، قد صح اعتقادها ، وسلم إيمانها من الزيغ والضلال فهو — أعنى ابن الكيزانى — متمثل فى إيمانه ، قول النبي عليه السلام ، فى جوابه عن سؤال جبريل إياه عن الإيمان، وهو قوله صلى الله عليه وسلم « الإيمان : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر ، خيره وشره من الله تعالى » . وهذا هو اعتقاد أهل السنة والجماعة، وعليه فمحمد بن إبراهيم بن ثابت الكيزانى فى رأينا ، عالم من علماء أهل السنة ، انتهى به الأمر إلى التصوف، فهو إذن من أولئك الصوفية ، الذين جاء تصوفهم موافقاً لما كانوا عليه من مذهب أو اعتقاد قبل التصوف ، على ما فصلناه فى غير هذا المكان .

---

(١) عماد الدين الأصفهانى — خريدة القصر وجريدة العصر — طبع القاهرة سنة ١٩٥٢ ج ٢ ص ١٩ .

الفصل الخامس

زهده وتصوفه

بعد أن تناولت بالشرح والتبيان ، معتقد ابن الكيزانى ونحلته ، أبسط القول فى زهده وتصوفه ، فأقول :

قد وصفه المؤرخون وأهل الأدب ، ورجال الدين من الفقهاء والمتصوفة ، ممن ألفوا فى التراجم والطبقات : بأنه عابد زاهد ، أكثر من اعتزال الناس والانقطاع إلى الله ، وغلب عليه التصوف ، وأنه من فضلاء القرن السادس الهجرى .

وخير شىء يصور لنا زهد ابن الكيزانى فى الدنيا ، وعزوفه عنها ، ما ذكره العلامة السخاوى ، فى ترجمته له ، إذ قال ما نصه[1] :

« وكان كثير الإيثار ، وكان له معمل برسم القزازة ، ويأكل من كسبه ، ويتصدق بالباقى ، وكان يأتيه الطالب ليقرأ عليه ، فيجده جوعان فيطعمه ، وعريان فيكسوه ، ويعطيه العمامة ، حتى يجد فى نعله شيئاً مقطوعاً فيخرزه بيده .

وجاء إليه ملك مصر ، ومعه رسول الخليفة يوماً ليزوره ، فدخلا عليه ، وهو يدور على الدولاب بيده ، ففرش لهما برشاً من خوص ، فقعدا عليه ، وسألاه الدعاء ، فدعا لهما ، فأخرج له الملك ألف دينار ، فلم يقبلها ، فقال له الملك : إن لم تأخذها لنفسك ، فتصدق بها على أصحابك وجيرانك ، فقال : ما هم محتاجون إلى ذلك ، فإنى فى كل يوم أعمل بثلاثة دراهم ونصف ، فآكل نصف درهم ، وأتصدق على جيرانى وأصحابى بالفاضل ، فخذها وانصرف » .

فمن هذا النص ، نستطيع أن نصف أبا عبد الله محمد بن إبراهيم بن ثابت الكيزانى ، بأنه زاهد ورع يقنع من الدنيا بالقليل ، ويأبى أن يكون له منها الكثير .

---

(١) « نور الدين » على بن أحمد السخاوى — تحفة الأحباب وبغية الطلاب — طبع القاهرة سنة ١٩٣٧ م — ص ٣٨٥ .

وفوق ذلك ، فإنه شديد التواضع ، شديد العطف ، رحيم بالطلاب ، كثير العناية بالمريدين .

وهناك معنى آخر ، يدل عليه ذلك النص ، غير الزهد والورع والتقشف والإيثار ، أعنى بغضه للفاطميين ، وازدراءه عقائدهم ، واستخفافه بسلطانهم . إذ أنه لم يقم وزناً للأمير الفاطمى ، ولا لذلك السلطان أو الملك — على حد تعبير السخاوى .

ولو أنه كان يجل الفاطميين ويبجلهم من ناحية ، ويعير الدنيا أى اهتمام من ناحية أخرى ، لهش للأمير ، وبش للملك ، وأخذ ما عرضاه عليه من المال . لكنه كما رأيت ، قد فرش للأمير والملك برشاً من خوص . وهذا إن دل على تقشف ابن الكيزانى ، فإنه لا شك ، أدل على ازدرائه للفاطميين ، ومقته مذهبهم . ثم إنه قد رفض المال ، وهو إن دل على زهده فى الدنيا ، فهو أيضاً أدل على كرهه الفاطميين .

وهناك روايات كثيرة ، وأخبار عديدة ، نقلتها كتب الثقات ، من المؤرخين وأصحاب التراجم والطبقات ، وكلها تنم عن زهد ابن الكيزانى ، وورعه ، وحسن تدينه ، وتقواه ، فمن ذلك ما ذكره فى ترجمته له ، كل من السبكى ، وابن خلكان ، وابن سعيد المغربى .

أما السبكى ، فقد قال بعد أن ذكر اسمه ونسبه وكنيته ولقبه ، ما نصه[1] :

« المشهور فى الديار المصرية بالعلم والزهد » .

وأما ابن خلكان ، فقد قال[2] :

كان زاهداً ورعاً » .

وأما ابن سعيد المغربى ، فقد قال بعد أن ذكر اسم ابن الكيزانى ونسبه ، مانصه[3] :

---

(١) انظرعبد الوهاب السبكى — طبقات الشافعية الكبرى — طبع القاهرة ، جـ ٤ ص ٦٥

(٢) انظر ابن سعيد — المغرب فى حلى المغرب — طبع القاهرة سنة ١٩٥٣ (القسم الخاص بمصر) جـ ١ ص ٢٦١ .

(٣) ابن خلكان — وفيات الأعيان — طبع القاهرة سنة ١٩٤٥ ، جـ ٤ ص ٨٦ .

« أخبرنى جماعة من المصريين ، أنه كان من عباد الفسطاط ، الملازمين لجبل المقطم » .

فمن هذه الأقوال ، وتلك الأخبار ، نستطيع أن نصف ابن الكيزانى — على ما سبق أن قلناه — بفرط الزهد ، وشدة الورع ، وكثرة التبتل والتنسك ، وأنه كان يصطنع المجاهدة والمكابدة ، ويكثر من الخلوات فى الفلوات . الأمر الذى يحملنا على القول ، بأنه كان صاحب طريقة ، تقوم فى جانبها العملى ، على كثرة الصيام والقيام ، وترك الشهوات ، والبعد عن الملذات ، والانقطاع إلى الله . ولعله كان يلزم أتباعه باتخاذ الخلوات وعمل الأربعينيات . وإليك من شعره، ما يمكن اعتباره قاعدة سلوكية ، يلتزم بها المريدون[1] :

قف على البـاب طالبـا ودع الدمـع ساكبا
وتوسـل بـه إليـه مـن الذنب تـائبـا
تلق من حسن فضـله عنـد ذاك العجـائبـا
ثم خف منـه أن يـرا ك عـلى الذنب راكبـا
فهو يجـزى عـلى اليسير ويعطى الرغـائبـا
زينـة العبـد بالتـقى فاجعـل الصـدق صاحبا

فابن الكيزانى فى هذه الأبيات ، يرسم منهجه العملى ، فى طريقته التى كان يلزم بها أتباعه ومريديه .

ونحن نستطيع أن نستخلص من تلك الأبيات ، القواعد السلوكية التالية :

أولا : الانصراف عن الدنيا وما فيها ومن فيها ، والاتجاه بالكلية إلى الله عز وجل. وهذا أخذاً من قوله فى البيت الأول :

قف على البـاب طالبا ودع الدمـع سـاكبا

فهو كما ترى ، يأمر أتباعه فى هذه الشطرة ، بالاتجاه إلى الله بالقلب والقالب ، والروح والجسد ، فى تذلل وخشوع .

---

(١) شمس الدين محمد بن الزيات — الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة — طبع القاهرة سنة ١٩٠٧م ص ٣٠٣ .

ثانياً : أن ينقطع المريد عن كل ، ما عدا الله ، إلى الله ، فلا يفكر فى شىء سواه ، ولا يرجو أى نفع إلا من الله ، وبعبارة أخرى أقول ، إن ابن الكيزانى ، يطلب من مريديه ، أن يزدروا كل شىء إلا الله ، وأن لا يقدسوا أحداً إلا الله ، وألا يجعلوا لمخلوق ، أيًّا كانت مكانته حتى ولو كان شيخ الطريقة نفسه ، أى دخل أو تأثير فى قرب المريد من ربه ، أو اتصال الصوفى بمولاه .

وقد استقيت هذه القاعدة السلوكية ، من قول ابن الكيزانى فى البيت الثانى من الأبيات المذكورة ، وهو قوله :

وتوســـل به إليـــه مـــن الذنب تائبـــا

ثالثاً : أن يمتلئ قلب المريد بخوف الله وخشيته ، فلا يقارف إثماً ، ولا يجترح سيئة ، ولا يرتكب خطيئة ، يدل على هذا قوله فى البيت الرابع :

ثم خف منـــه أن يرا ك على الذنب راكبـــا

رابعاً : أن يطهر المريدون أو السالكون قلوبهم من دنس الدنيا ورغائب الحياة ، وألاّ يشغلوا نفوسهم بالتفكير فى شئون العاجلة ، بل ينصرفوا إلى الاستعداد للحياة الآجلة ، وبعبارة أوضح أقول :

يصفون قلوبهم من شوائب الحياة المادية ، وينصرفون بالكلية إلى الحياة الأخروية ، وذلك بالتقى والورع ، والصدق فى العبادة ، والصبر على البلاء ، والرضاء بالقضاء . يدل على ذلك كله قول ابن الكيزانى فى البيت الأخير من المقطوعة التى أسلفناها :

زينة العبد بالتقى فاجعل الصدق صاحبا

وقوله[١] :

داوم على ما أنت فيه فإنما الدنيا عبر
عودت نفسى الصبر والأجر الجزيل لمن صبر

هذا هو مجمل القول فى الجانب العملى ، أو السلوكى ، من طريقة ابن الكيزانى ، أما الجانب النظرى ، أو الاتجاه الروحى ، فإنه يقوم على الحب الإلهى .

---

(١) العماد الأصفهانى – خريدة القصر وجريدة العصر – طبع القاهرة سنة ١٩٥٢ ج ٢ ص ١٩

وقد نظرت فى شعر ابن الكيزانى ، وتأملت كل ما وقع إلى من قصائده ومقطعاته ، فخرجت منها جميعاً بهذه الحقيقة وهى :

أن ابن الكيزانى قد تدرج فى حبه ، ومر فيه بعدة أطوار ، وهى : أولا : حب يشبه الحب البشرى الذى يقع من جانب واحد ، وهذا أخذاً من قوله[١] :

إذا نفحت رياح الغور يوماً … فإن الدمع ينجدنى ويغرى
تذكرنى الذى قد غاب عنى … فيلقانى وألقاه بذكر
نأى عنى وقلبى مثل برق … وأجفانى سحاب ذات قطر
والهفى عليه ثم لهفى … نأى بنواه يوم البين صبرى
أبيت معللا روحى بروح النـ … ـسيم من أرضه أيان يسرى
ولا والله ما ذاقت جفونى … مناماً لا ولا أخليت ذكرى
ووا أسفى على أن ذبت شوقاً … وأحسبه بذلك ليس يدرى

فابن الكيزانى فى حبه هذا ، كما هو واضح من تلك الأبيات ، دنف معنى ، قد برح به الهوى ، ونال منه الجوى ، وجافى جفنيه الكرى ، وجانب جنبه الرقاد .

والسر فى ذلك كله شعوره بغياب حبيبه عنه ، (ومعناه هنا عدم التجلى) وإحساسه بأنه لا يدرى بما به من فرط الوجد ، وشدة الهيمان .

ثانياً : حب مع الشعور بعطف الحبيب ، يدل على ذلك قوله[٢] :

يا من يتيه على الزمان بحسنه … اعطف على الصب المشوق التائه
أضحى يخاف على احتراق فؤاده … أسفاً لأنك منه فى سودائه

فهذا كلام كما ترى يعطى أن ابن الكيزانى أخذ يستشعر تجلى الله — سبحانه — على قلبه ، ولكنه تجل محدود ، وفى فترات قصيرة ، لا تكاد تجاوز اللحظات .

ثالثاً : حب يخامره الأمل والرجاء فى الوصول واللقاء ، يدل على ذلك قوله[٣] :

وإذا لاق بالمحب غرام … فكذا الوصل بالحبيب يليق

---

(١) ابن سعيد — المغرب فى حلى المغرب — طبع القاهرة سنة ١٩٥٣ جـ ١ (القسم الخاص بمصر) ص ٢٦١ .

(٢) و (٣) الصفدى — الوافى بالوفيات — طبع استانبول سنة ١٩٣١ م جـ ١ ص ٣٤٧ .

فهذا البيت يفيد فى صراحة، أن ابن الكيزانى أخذ يتلقى من ربه كثيراً من الفيوضات ، وينفعل قلبه ببعض النفحات .

أما الطور الرابع والأخير من أطوار حب ابن الكيزانى ، فهو تمام الوصال ، إذ يقول[١] :

اصرفوا عنى طبيبى ودعونى وحبيبى
عللوا قلبى بذكراه . . . فقد زاد لهيبى
طاب هتكى فى هواه بين واش ورقيب

فابن الكيزانى فى هذه الأبيات ، قد تذوق طعم الوصال ، واستشعر — من حبيبه — جميل العطف وحسن النوال ، ولم يعد ذلك العاشق الولهان ، الذى برح به الوجد ، وأشجاه الغرام . على أنه لم يزل دنفاً معنى ، تضطرم فى أحشائه نار الصبابة ، ويحتدم فى فؤاده لهب الهيام ، ومع ذلك فإنه يشعر بالسعادة والسرور ، أو تمتلئ روحه بالبهجة والحبور ، وإن بدا جسده ناحلا ، ووجهه شاحباً ، لفرط الجوى ، ولعج الهوى ، وطول السقام ، وبرغم ذلك كله ، فإنه يأبى أن يقترب منه الطبيب ، لأنه يحبه جد سعيد ، فلا يطلب الدواء إلا من الداء ، ولا يرجو الشفاء إلا من الصد والجفاء ، فما دام حبيبه يواسيه ، ومن خمر الهوى يسقيه ، فإنه راض بكل ما هو فيه ، غير مكترث بكلام الوشاة الشائنين ، ولا مبال بأعين الرقباء العاذلين .

وهذا كله من باب التشبيه ، وعلى سبيل التمثيل ، أما حقيقة حب ابن الكيزانى ، فإنها شيء آخر لا يمكن وصفه أو شرحه ، إذ هو عبارة عن حالة القرب أو مقام المعرفة ، أو مرتبة التحقق أو الاتحاد . ولا عجب فإن الأبيات المذكورة تعطى فى صراحة ، أن ابن الكيزانى قد فنى عن العالم الحسى ، إذ لم يعد يشعر به ولا يعير قيمه أى اعتبار . وهذا هو الحال أو المقام الذى يعبر عنه براهمة الهنود بكلمة « نرفانا » ، أما متصوفة الإسلام فإنهم يطلقون عليه تارة اسم « مقام الفناء » ، وتارة

(١) الشيخ الإمام أبو محمد يوسف سبط الشيخ أبى الفرج عبد الرحمن ابن الجوزى — مرآة الزمان — طبع شيكاغوستة ١٩٠٧ جـ ٨ ص ١٥٧ .

أخرى اسم « مقام الشهود » ، أو حالة التحقق ، وهو ما يعبر عنه الفلاسفة والمتكلمون بكلمة « الاتحاد » .

ومهما يكن من أمر ، فإن ابن الكيزانى قد عرف فى عصره بأنه ذو طريقة صوفية ، وكان له عدد كبير من الأتباع والمريدين ، وقد زعم الذين ترجموا له أو أرخوه ، أنه يعتقد فى التجسيم ، فقد قال السبكى فى ترجمته له(١) :

بعد أن ذكر اسمه ونسبه وكنيته ولقبه -: « المشهور فى الديار المصرية بالعلم والزهد والتجسيم » .

وأغلب الظن ، أن ابن الكيزانى لم يقل فى التجسيم ، ولا خالف فى شىء ذى بال عقيدة أهل السنة والجماعة ، على ما سبق أن فصلناه . وإنما خيل إلى أولئك الباحثين ، أو دخل فى وهمهم ذلك المعنى ، بسبب كثرة ورود كلمة « الحبيب » وعبارات الغزل وألفاظ التشبيب فى شعره ، مقصوداً بها ذات الله - عز وجل - ولما كان علماء الظاهر وأهل الشريعة ، لا يبيحون نعت الله بتلك الصفات ولا يجيزون لأحد أن يخاطب الله - عز وجل - بشىء من تلك العبارات ، ولا أن يكنى عن ذاته - جل وعلا - بمثل هاتيك الكلمات التى زخر بها شعر ابن الكيزانى . فإنهم لذلك - فيما أظن - رموه بالتجسيم ، وقالوا إنه يقول بفكرة التشبيه ، لأن عبارات الغزل وألفاظ التشبيب وكلمات « الحب » و « الحبيب » الواردة فى شعر ابن الكيزانى أخلق بالخلق ، وألصق بالمخلوقين .

وجملة القول فى طريقة ابن الكيزانى أنها كغيرها من طرق التصوف ، تتألف من منهجين اثنين ، الأول عملى ، والآخر روحى أو نظرى .

أما الأول : فيقوم على المجاهدة والمكابدة ، وتقويم السلوك وتهذيب الأخلاق .

والثانى : يتألف من تعاليم روحية ، تنتظم المنازل والمقامات الروحية التى يمر بها السالكون وهم فى طريقهم إلى الله ، وملاك ذلك كله وضابطه عند ابن الكيزانى هو صدق المريدين وإخلاصهم فى حبهم لله .

فكل من حسنت سيرته ، وصفت سريرته ، وانشغل قلبه بحب مولاه ، ولم ينبض بشىء سواه ، يكون - بإذن الله - أحد الواصلين .

---

(١) السبكى - طبقات الشافعية الكبرى - طبع القاهرة ، ج ٤ ص ٦٥ .

الفصل السادس

مكانته لدى الشعب وعند الفاطميين

تجمع النصوص التى بين أيدينا على أن ابن الكيزانى كان يتبوأ مكانة سامية لدى الشعب ويحتل منزلة رفيعة عند الفاطميين .

فهذا العلامة السخاوى — فى ترجمته له — يقول ما نصه[1] :

« كان عظيم الشأن، وله الديوان المشهور ، وله كتاب "الرقائق" ، وله الكتاب المعروف "بمليك الخطب" .

وقد منع فى زمانه القراء من القراءة فى الأسواق ، ومنع معلمى المكاتب من مسح الألواح إلا فى الآنية الحديدة ، وأن يجمع ذلك ويطرح فى البحر . وكان كثير الإيثار » .

فهذا كما ترى ، أدل شىء على عظم المكانة التى كان يحتلها ابن الكيزانى بين أبناء المجتمع المصرى من جهة ، وفى نفوس الحكام الفاطميين من جهة أخرى .

وآية ذلك كونه حظر على الذين كانوا يتكسبون بالقرآن أن يقرءوا فى الأسواق ، كما حظر كذلك على معلمى الصبية وأصحاب المكاتب ، أن يمسحوا من الألواح الآيات القرآنية ، إلا فى آنية جديدة ، وألزمهم أن يجمعوا تلك المحاية ويلقوها فى البحر ، وذلك مبالغة منه فى تبجيل القرآن الكريم ، وتعظيم آى الذكر الحكيم .

ولولا أن ابن الكيزانى ، كان ذا شأن عظيم ومكانة مرموقة ، وذا منصب رفيع فى الدولة ، لما استطاع — بحال من الأحوال — أن يتحكم فى طائفة القراء ، وجماعة المعلمين . إذ أن منع الناس من مزاولة أى عمل من الأعمال، لا يتأتى من فرد عادى ، أو غير ذى سلطان ، فقد جرت العادة أن تصدر مثل هذه الأحكام عن قاضى قضاة الديار المصرية ، أو الوالى أو الوزير . الأمر الذى يحملنا على القول ، بأن

---

(١) السخاوى — الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة — طبع القاهرة سنة ١٩٠٧ ص ٣٠٣ .

ابن الكيزانى كان — ولو على سبيل الفرض والتخمين — يشغل فى وقت من الأوقات منصب القضاء .

هذا وقد سبق أن ذكرنا فى غير هذا المكان ، نصاً فحواه ، أن الملك ذهب إلى ابن الكيزانى ، ومعه أمير القاهرة ، فسألاه الدعاء ، وقدما له مبلغ ألف دينار :

وهذا إن دل على شىء فإنما يدل على أن الفاطميين كانوا يترضون ابن الكيزانى ويتقربون إليه ، لا لصلاحه وتقواه ، ولا رغبة فى أن يسأل الله لهم ، ولكن خوفاً من أن يستغل شعبيته وتقدير الناس له ، فيدعوهم إلى الانتقاض على الخليفة الفاطمى ، وخلع طاعته .

ولا غرو فإن ابن الكيزانى كان على مذهب أهل السنة والجماعة ، وهو أمر يجعل الفاطميين يخشونه ويحذرون منه . إذ من الجائز والمعقول ، أن يتصل بابن الكيزانى بعض أنصار العباسيين وفى ذلك ما فيه من الخطر الجسيم ، على كيان دولة الفاطميين ، هذا على أن أتباع ابن الكيزانى ومريديه ، كانوا — فيما أظن — كثيرين منتشرين فى أنحاء عدة بالوجهين القبلى والبحرى ، وأنهم كانوا لكثرتهم يجاهرون بآرائهم السنية ، التى تخالف فى جوهرها التعاليم الفاطمية ، ولست أقول هذا ادعاء ولا رجماً بالغيب ، وإنما هو قول يؤيده الدليل ، من أقوال المؤرخين السابقين ، وبخاصة من كانوا يعيشون فى زمن غير بعيد من عصر الفاطميين ، كسبط بن الجوزى ، وابن خلكان ، وهما ثقتان يلتزمان فيما ينقلانه من الأخبار الدقة والأمانة ، وإليك من أقوالهما ما يدل على أن طائفة ابن الكيزانى ، كانت ذات خطر كبير ، وشأن عظيم .

قال سبط بن الجوزى ، بعد أن ذكر اسم ابن الكيزانى ، ونسبه ، ما نصه[١] :

« رجل مشهور فاضل ، وله أصحاب بمصر ، كان يقول إن أفعال العباد قديمة ، وبين أصحابه وبين جملة من المصريين خلاف » .

فهذا لعمرى دليل على شوكة طائفة ابن الكيزانى وقوة شكيمتهم . وإلا لما استطاعوا أن يجاهروا بمخالفة مذهب الحاكمين ، وأصحاب السلطان فى البلاد .

---

(١) ابن الجوزى — مرآة الزمان — طبع شيكاغو سنة ١٩٠٧ م ج ٨ ص ١٥٧ .

أما ابن خلكان ، فقد قال فى هذا الصدد ، ما نصه[١] :

« وبمصر طائفة ينسبون إليه ، ويعتقدون مقالته » .

ووجهة دلالة هذا القول ، على كثرة أتباع ابن الكيزانى ، كون ابن خلكان قد عبر عنهم بكلمة طائفة . والطائفة فى اللغة إنما تقال على الكثرة ، كما أن المتكلمين وأصحاب التصانيف ، فى الفرق والملل والنحل ، قد أطلقوا لفظ « طائفة » على الجماعة ذات النحلة الخاصة ، أو المذهب المعين .

وقصارى القول فى هذا المقام هو : أن ابن الكيزانى كان ذا شأن عظيم لدى جمهرة المصريين ، سنيين وفاطميين ، حاكمين ومحكومين ، وأنه كان ذا طريقة كثيرة الأتباع والمريدين .

ومن ثم كان الخلفاء والأمراء الفاطميون ، يبجلون ابن الكيزانى ، ويكرمونه ، ويعيرونه هو وأتباعه أكبر عناية ، وأعظم تقدير .

---

(١) ابن خلكان – وفيات الأعيان – طبع القاهرة سنة ١٩٤٨ ج ٤ ص ١٨٦ .

الفصل السابع

وعظه وخطبه

لقد أطبق المؤرخون ورواة الأخبار ، وأصحاب التراجم والطبقات ، وبخاصة المعنيون بأحوال المتصوفة ، والفقهاء من رجال الدين ، على أن ابن الكيزانى كان واعظاً حاذقاً ، ذا تأثير كبير على نفوس الجماهير . مع بلاغة فى القول ، وفصاحة فى الكلام ، وقدرة فائقة فى الخطابة ، ولباقة فى الحديث . وأن المصريين كانوا يستعذبون قوله ، ويستملحون كلامه ، ويتأثرون إلى حد كبير ببالغ حكمه ، وبليغ خطبه . ولا عجب ، فهذا العماد الأصفهانى ، وهو المعروف بالصدق فى القول ، والتحرى فى الرواية ، والدقة فى الحكم والتقدير ، يصف ابن الكيزانى ، فيقول[1] :

« فقيه واعظ ، مذكر ، حسن العبارة ، مليح الإشارة ، لكلامه رقة وطلاوة ، ولنظمه عذوبة وحلاوة ، مصرى الدار ، عالم بالأصول والفروع ، عالم بالمعقول والمشروع ، مشهود له بألسنة القبول ، مشهور بالتحقيق فى علم الأصول ، وكان ذا رواية ودراية بعلم الحديث ومعرفة بالقديم مكون الحديث » .

فهذا — كما ترى — كلام ملىء بالنعوت ، زاخر بالإطراء ، إذ يصف ابن الكيزانى ببلاغة القول ، وروعة الكلام ، وبراعة الوعظ وقوة التعبير ، مع غزارة العلم وسعة المعرفة ، وكمال الدراية ، وحسن الرواية .

هذا وقد ذكره سبط بن الجوزى فى مرآته ، فقال[2] :

« الواعظ المصرى ، رجل مشهور فاضل » .

---

(١) العماد الأصفهانى — خريدة القصر وجريدة العصر — طبع القاهرة سنة ١٩٥٢ م — جـ ٢ ص ١٨ .

(٢) ابن الجوزى — مرآة الزمان — طبع شيكاغوسنة ١٩٠٧ م جـ ٨ ص ١٥٧ .

وقد وصف ابن الكيزانى بأنه واعظ مصر كذلك ، أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى ، إذ قال فى ترجمته له ، ما نصه[١] :

« الواعظ المصرى » .

وقد ذكر له كل من ابن الزيات ، والسخاوى ، كتابين فى الوعظ والإرشاد ، اسم الأول « الرقائق » ، وعنوان الثانى « مليك الخطب » .

هذا على أن ديوان ابن الكيزانى ملىء بالمواعظ والنصائح ، زاخر بالحكم والإرشاد ، يدل على ذلك ما وصفه به العماد الأصفهانى ، إذ يقول[٢] :

« وله ديوان شعر يتهافت الناس على تحصيله وتعظيمه وتبجيله ، لما أودع فيه من المعنى الدقيق ، واللفظ الرشيق ، والوزن الموافق ، والوعظ اللائق ، والتذكير الرائع الرائق ، والقافية القافية آثار الحكم ، والكلمة الكاشفة أسرار الكرم » .

فكلام الأصفهانى هذا ، أصدق شاهد وأقوى دليل ، على أن ديوان ابن الكيزانى يشتمل على مجموعة غير قليلة من القصائد والأشعار ، التى نظمها ابن الكيزانى بقصد النصح والإرشاد ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والترغيب فى الجنة والترهيب من النار ، وأنه يحض كذلك على فعل الفضائل ، وترك الرذائل ، واجتناب ما حرم الله .

وجملة القول فى ابن الكيزانى من هذه الوجهة ؛ أنه كان يعظ الناس بالفسطاط والقاهرة ، أيام الجمع وفى مختلف المناسبات ، تارة بالخطب النثرية المنمقة ذات الألفاظ الفخمة والكلمات الجزلة ، والمعانى البليغة ، والصور الرائعة ، والتعابير الرائقة ، وتارة أخرى بالقصائد والمقطعات الفياضة بالمشاعر الصادقة ، النابضة بالأحاسيس الدينية ، والعواطف الإنسانية ، المتأججة بحرارة الإيمان ، الوضاءة بنور اليقين .

---

(١) ابن تغرى بردى — النجوم الزاهرة — طبع القاهرة سنة ١٩٣٥ جـ ٥ ص ٢٧٦ .

(٢) العماد الاصفهانى — خريدة القصر وجريدة العصر — طبع القاهرة سنة ١٩٥٢م جـ ٢ ص١٨

الفصل الثامن

موقفه من الشريعة وعلوم أهل الظاهر

ذكرنا عند حديثنا عن ابن الكيزانى ، أيام الطلب وزمن التلمذة أنه درس فقه الشافعى ، وروى الحديث ، وهنا نقول على سبيل التأكيد والتقرير ، إن ابن الكيزانى لم يكن واحداً من أولئك المتصوفين الذين هم اطرحوا الشريعة ، وأهملوا علم الظاهر ، ولم يعترفوا بغير الحقيقة أو الطريقة ، وقرروا أن ظاهر الكتاب والسنة، خاص بالعامة والدهماء ، وذوى القلوب المظلمة ، أما الخاصة أو الأصفياء من الذين أنار الله قلوبهم ، وكشف عن بصائرهم ، فإنهم قد فقهوا الدين على حقيقته ، وعرفوا معانى القرآن ، وأدركوا مقاصد النبى — عليه السلام — أعنى أنهم عرفوا الباطن ، واهتدوا إلى الحقيقة المثلى .

أقول : لم يكن ابن الكيزانى أحد هؤلاء ، إذ كان يقيم كل وزن واعتبار لظاهر الكتاب والسنة ، ويلتزم فى سلوكه وتصرفاته بقوانين الشريعة .

ولا غرو ، فقد كان ابن الكيزانى معنياً كل العناية بالفقه وأصول الفقه ، كثير الاهتمام بعلوم الحديث . وهذا إن دل على شىء ، فإنما يدل على أن ابن الكيزانى ، كان يرى أن العمل بظاهر الكتاب والسنة شرط أساسى لصحة السلوك ، واستقامة الطريق .

ولست أقول هذا دفاعاً عن ابن الكيزانى ، أو تعصباً له ، وإنما هى الحقيقة ، التى أقر بها له الموافق والمخالف . فهذا السبكى ، وهو فقيه شافعى ، يقول فى ترجمته له[1] :

« سمع من أبى الحسن على بن الحسين بن عمر الموصلى ، وأبى على الحسن بن محمد بن حسن الجيلى ، روى عنه جماعات ، ولابن المفضل منه إجازة » .

---

(١) السبكى — طبقات الشافعية الكبرى — طبع القاهرة ج ٤ ص ٦٥ .

فهذا كما ترى دليل ناصع وبرهان ساطع ، على أن ابن الكيزانى كان شديد الاهتمام بعلوم الظاهر ، شديد التمسك بأحكام الدين .

ولو أنه كان — كسواه من المتصوفة — غير حافل بالظاهر ، ولا متشبث بتعاليم الدين ، لما ارتحل فى طلب الحديث ، ولا كان له طلبة يأخذون عنه ما قد رواه ويكتبون عنه ما قد رآه .

ومجمل القول فى هذا المقام أن يقال : إن ابن الكيزانى كان فقيهاً متصوفاً — قد جمع بين الظاهر والباطن . أو بتعبير آخر أقول : إنه تمثل الحقيقة ، وامتثل الشريعة . فأضحى مرضياً عنه لدى الفريقين ، الأمر الذى جعل أصحاب الباطن وأهل الظاهر كليهما يذكرونه فى كتبهم ، ويكثرون فيه المدح والإطراء .

الفصل التاسع

قناعة ابن الكيزانى وعطفه على الفقراء

بناء على ما ذكرناه فى الباب الأول من هذا الكتاب عند كلامنا عن الأحوال الاقتصادية وما كانت عليه أمور العيش إبان عصر ابن الكيزانى نستطيع أن نقول هنا إن الفاقة والعوز كانا يخيمان على سواد الشعب وأكثر أفراد مجتمع ذلك الحين، وذلك لعدة أسباب: أحدها أن الملوك والسلاطين كانوا فى ذلك الحين إقطاعيين ورأسماليين، لا يفكرون فى عدالة التوزيع، ولم يكن ليهمهم أمر الفلاحين ولا شأن الكادحين.

ومن يقرأ كتاب «بدائع الزهور فى وقائع الدهور» لابن إياس، يجد فيه صورة واضحة المعالم، بينة القسمات، للنظام الاقتصادى الذى كان سائداً فى الديار المصرية، إبان تلك العصور. إذ يذكر ابن إياس: أن الأراضى كانت تقسم إلى أربعة وعشرين قيراطاً موزعة على السلطان وحاشيته، والأمراء وقادة الجيش، وطائفة الجنود، وحكام الأقاليم. أما الفلاحون والزراع، فإنهم يفلحون ويكدحون، ولا يأخذون سوى ما يسد الرمق، ويقيم الأود.

هذا على أن الفقهاء ورجال الدين، كانوا يعدون ضمن الطبقات ذات الشأن، طيلة تلك العصور، بما فى ذلك المؤرخون وأصحاب التراجم، والرواة والمحدثون.

ومن ثم وجدنا ابن الكيزانى يتحلى بصفتين رئيسيتين هما القناعة من الدنيا باليسير وشدة العطف على الفقراء والمساكين من خلطائه ومجاوريه ومن طلابه ومريديه ولا غرو فإن كل الذين ترجموا له وأرخوه قد وصفوه ونعتوه فى كل ما ذكروه عنه من عبارات وكلمات، تعبر فى تقديرهم عن زهده وورعه، فمن ذلك — على سبيل المثال — قولهم: كان عابداً زاهداً، قنوعاً من الدنيا باليسير.

وقولهم: إنه كان يأكل من كسب يده، وكان شديد العطف على الطلاب. فكان يأتيه أحدهم جائعاً فيطعمه، وعارياً فيكسوه.

وهذه العبارات إن دلت على شيء فإنما تدل على تأصل روح ما نسميه نحن الآن بالاشتراكية . ولعل فيما ذكره السخاوى ، وابن الزيات ، خير شيء يصور لنا قناعته وعطفه على المحتاجين ، إذ قالا ما نصه[١] :

« ويأتيه الطالب ليقرأ عليه ، فيجده جائعاً فيطعمه ، وعرياناً فيكسوه ، ويعطيه العمامة ، حتى إنه إذا وجد فى نعله شيئاً مقطوعاً يخرزه بيده . وجاءه يوماً أمير مصر ، ومعه رسول الخليفة ، فدخلا عليه وهو يدور على الدولاب بيده ، ففرش لهما برشاً من خوص ، فقعدا عليه ، وسألاه الدعاء ، فدعا لهما . فأخرج له الملك ألف دينار ، فردها ، فقال له السلطان : إن لم تأخذها لنفسك فتصدق على أصحابك بها . فقال : وأصحابى لا يحتاجون إليها ، فإنى أعمل على هذا الدولاب فى كل يوم بثلاثة دراهم ونصف ، فآكل من ذلك بنصف ، وأتصدق بثلاثة دراهم على أصحابى وأهلى وجيرانى ، فخذها وانصرف » .

فهذا النص صريح ، فى أن ابن الكيزانى كان يرى أن المال قوام الحياة ، وأنه لذلك ينبغى أن يكون قسمة عادلة بين الناس . فلا يجوز فى مذهب ابن الكيزانى ، أن يجمع المال أفراد ، ويحرم منه آخرون . ثم إنه يرى كذلك ، أن على كل فرد من أفراد المجتمع أن يجد فى طلب الرزق ، وأن يكد ويكدح ، بدليل أن ابن الكيزانى نفسه كان يأكل من كسب يده ، وأنه كان يدير بيده على الدولاب .

هذا على أنه كان — من ناحية أخرى — يعد جمع المال واحتكاره أمراً يتنافى مع تعاليم الإسلام ، إذ يقول الله — سبحانه وتعالى — فى كتابه العزيز :

« إن الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » .

« يوم يحمى عليها فى نار جهنم ، فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم ، فذوقوا ما كنتم تكنزون » .

---

(١) انظر ابن الزيات — الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة — طبع القاهرة سنة ١٩٠٧ م ص ٣٠٣ .

والعلامة السخاوى — تحفة الأحباب وبغية الطلاب — طبع القاهرة سنة ١٩٣٧ م الطبعة الأولى ص ٣٨٥

والدليل على أن ابن الكيزانى ، قد اتجه هذا الاتجاه ، كونه رفض أخذ الألف دينار — التى عرضها عليه السلطان — فلما قال له : أعطها أصحابك وجيرانك ، رد عليه بقوله :

إنى أعمل على هذا الدولاب فى كل يوم بثلاثة دراهم ونصف ، فآكل منها بنصف درهم ، وأفرق الباقى على أصحابى وجيرانى .

وهذا لعمرى أدل شىء على قناعة ابن الكيزانى ، وزهده ، ومقته الشديد لأرباب رأس المال ، وذوى الثراء الفاحش من ناحية ، ومحاربته التواكل والاعتماد على الصدقات فى العيش ، مهما تعددت العلل ، وتنوعت الأسباب ، من ناحية أخرى .

وقصارى القول فى ابن الكيزانى من الوجهة الاقتصادية ، أنه كان يعد فى زمانه — حسب اصطلاح عصرنا الحاضر — داعية من دعاة عدالة التوزيع ، وزعيما من زعماء الإصلاح الاجتماعى .

الفصل العاشر

أثره فى تطوير الفكر المصرى

من المذهب الباطنى إلى المذهب السنى

لما كان الفاطميون قد عملوا على نشر تعاليم مذهبهم فى مصر وحملوا الناس على اعتناقها والعمل بمقتضاها فى حياتهم الدينية والاجتماعية . كان لابد للمذهب السنى من الانزواء والاندحار ، وبالتالى ضعف معتنقيه وأنصاره فى أرض وادى النيل، ومن ثم وجدنا التصوف السنى يختفى من مصر ويظهر فى قوة وانتشار فى كل من العراق وخراسان وبلاد الأندلس،وذلك فى القرنين الخامس والسادس الهجريين، ومن يتتبع تاريخ الأعلام وينعم النظر فى كتب التراجم والطبقات وبخاصة ما كان منها فى تراجم رجال الدين ، يجد أن رجال الفقه والتصوف من أهل السنة قد هجروا مصر واتجهوا إلى المشرق حيث كان يسيطر العباسيون الذين كانوا يضطلعون بنشر المذهب السنى وتأييده ضد المذهب الفاطمى الذى بدأ يغزو بلاد المشرق فى أخريات القرن الثالث الهجرى عن طريق الدعاة ، ثم تمركز فى مصر فى أخريات القرن الرابع الهجرى حيث استطاع الفاطميون أن ينتزعوا هذه البلاد من الخلافة العباسية ، وبعد ذلك بسطوا سلطانهم على ربوع الشام . وقد دامت دولتهم من الناحية السياسية نحو مائتى عام ، أما من الناحية الفكرية فإن مذهبهم قد دام أكثر من تلك المدة التى عاشتها الدولة الفاطمية فى مصر والشام ، إذ أن مذهب الإسماعيلية الباطنية قد غزا صعيد مصر وبلاد اليمن وأرض حضرموت وأنحاء أخرى فى بلاد فارس وإيران أثناء حكم الفواطم للمغرب الأقصى وذلك قبل أن يمتد سلطانهم إلى المشرق بردح طويل من الزمان. كما أنه — أعنى المذهب الإسماعيلى — قد بقى فى مصر — وبخاصة فى أرض الصعيد — حتى القرن الثامن الهجرى، أى بعد زوال الحكم الفاطمى بنحو قرنين من الزمان . ولست أريد فى هذا الفصل أن أتتبع نشأة المذهب الفاطمى وتطوره وأبين ازدهاره وتدهوره ، وإنما أردت أن أبين الظروف الدينية والأحوال الفكرية التى سادت الديار المصرية إبان العصر الفاطمى كى

يتسنى لنا أن نتفهم مدى خطورة الدور الذى لعبه ابن الكيزانى فى حياة المصريين من الناحيتين الفكرية والمذهبية؛ ولا عجب فإن المصريين كانوا قد انصاعوا إلى تعاليم المذهب الإسماعيلى الباطنى وانفعلت بها مشاعرهم واصطبغت بلونها عواطفهم ووجداناتهم وأخذ تفكيرهم يدور فى إطار تلك التعاليم . وقد بلغ من تأثر المصريين بقواعد ذلك المذهب وتعاليمه أن أصبحوا يعتقدون أن الإمام الفاطمى يضر وينفع ، وأنه يرزق من شاء بما شاء ويحرم من شاء إذا شاء . ومصداق ذلك قول ابن هانئ الأندلسى فى مدح المعز لدين الله الفاطمى :

ما شئت لا ما شاءت الأقـدار ... فاحـكم فأنت الواحد القهار

ومعنى هذا أن المصريين كانوا يخلعون على الخليفة الفاطمى صفات الألوهية، وقد ظلوا كذلك حتى جاء القرن السادس الهجرى فبدءوا يسيئون الظن فى تلك التعاليم الفاطمية، وبالتالى يشكون فى صدق نسبة تلك الصفات إلى الإمام حيث عجز عن درء الأخطار العسكرية والكوارث الاقتصادية التى منوا بها فى مستهل القرن السادس الهجرى . ولا غرو فإن الصليبيين قد هاجموا بعض مدن الشام التى كانت خاضعة للحكم الفاطمى وانتزعوها عنوة وأقاموا فيها إمارات ودويلات،وأخص منها بالذكر هنا بيت المقدس التى استولى عليها الصليبيون وأخرجوا منها جيش الفاطميين سنة ثلاث وخمسمائة هجرية ، ثم أخذ الصليبيون يحتلون بقاعاً أخرى فى فلسطين قرب الحدود المصرية كعسقلان وغزة وقلاعاً أخرى فى منطقة العريش وخليج تيران ، هذا من الناحية السياسية والعسكرية ، أما من الناحية الزراعية والاقتصادية ، فإن منسوب ماء النيل كان ينخفض كثيراً من حين إلى حين حتى عمت المجاعات وكثرت الأوبئة الفتاكة فى ربوع وادى النيل ، الأمر الذى جعل المصريين يشكون كثيراً فى صحة العقائد الفاطمية وبالتالى ينزعون الثقة من الخليفة الذى كانوا يعتقدون أنه معصوم وأنه يضر وينفع ، ومن ثم جعل المصريون يتجهون بعواطفهم وقلوبهم وبجميع إحساساتهم إلى الله سبحانه وتعالى يلتمسون منه كشف الضر ودرء الملمات إذ أنهم تدبروا تلك الدعاوى الفاطمية وقاسوها بواقع الأمر فوجدوا أن الخليفة بشر ، له ما لهم من صفات العجز والضعف وعدم القدرة على تغيير مشيئة الله ، فراحوا لذلك كله يبحثون لأنفسهم عن طريق آخر غير التشيع تكسبهم رحمة الله .

فكان أن قيض الله لهم محمد بن إبراهيم بن ثابت الكيزانى الذى أخذ يدعو الناس إلى الزهد فى الدنيا ، والعزوف عنها ، والاتجاه إلى الله بالقلب والقالب فى تضرع وخشية بغية السلامة فى الدنيا والآخرة . وقد نجحت دعوته واستجاب له المصريون فأخذ الطلاب والمريدون يفدون عليه من كل فج ويؤمونه من كل حدب وصوب ، ومن ثم أصبح لابن الكيزانى تلامذة ومريدون أيضاً وأنصار ومشايعون يرون رأيه ويعتقدون مقالته ، وقد أخذوا عنه علوم الظاهر كالفقه وأصول الفقه والحديث كما أخذوا عنه أصول الطريق ، أعنى أن ابن الكيزانى كان شيخ المصريين فى زمانه فى الميدانين الشرعى والصوفى ، ثم هو من ناحية أخرى كان زعيما سياسيًّا تبعاً لزعامته الدينية . وآية ذلك أنه قاوم العقيدة الفاطمية وحارب تعاليم الباطنية وذلك بتعليمه طوائف المصريين مذهب أهل السنة وبخاصة فقه الشافعى ، وروايته لهم أحاديث الرسول بأسانيد أهل السنة أيضاً . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى عمل جاهداً على نشر التعاليم الصوفية وإذاعتها فى ربوع مصر متحدياً فى ذلك كله سلطان الفاطميين .

ولو أننا تبينا فى وضوح وثاقة الصلة وشدة الارتباط بين الحكم والدين فى ذلك الحين لعرفنا مدى الخطورة التى كان يواجهها ابن الكيزانى فى نشره تعاليم وآراء دينية تخالف تعاليم ونظريات مذهب الحاكمين ، ولا غرو فإن الحكم فى تلك العصور كان منوطاً دائماً برجال الدين . إذ كان الحاكم أو الخليفة أو السلطان يستمد قوته وسطوته ومهابته من العقيدة والدين . وقد كان هذا هو الطابع المميز لتلك الدول التى كان يتسمى رؤساؤها بالخلفاء .

ومهما يكن من أمر ، فإن ابن الكيزانى قد أسهم إلى حد كبير فى تطوير العقلية المصرية من الصبغة الباطنية إلى الفكر السنى .

وهو بذلك — فيما أعتقد — قد مهد السبيل أمام السلطان صلاح الدين الذى أسقط الخلافة الفاطمية فى مصر وأحل محلها تبعية العباسيين ، ولولا ابن الكيزانى وتعاليمه وتلاميذه ومريدوه ، ما استطاع صلاح الدين أن يقضى على الخلافة الفاطمية بتلك السرعة ، وفى ذلك الوقت الوجيز الذى تم له فيه إنهاء الحكم الفاطمى وإرجاع مصر كلها إلى المذهب السنى وإدخالها فى منطقة نفوذ العباسيين من جديد . ولعل

فيما ذكره العماد الأصفهانى من أن صلاح الدين أعطاه نسخة من ديوان ابن الكيزانى[1] ما يؤيدنا فيما نذهب إليه من القول بأن ابن الكيزانى قد مهد لصلاح الدين الطريق للقضاء على الدولة الفاطمية ، ثم إن هذا النص الذى نسبناه إلى العماد الأصفهانى يحملنا على أن نذهب أبعد من ذلك ، فنقول — على سبيل الظن والترجيح — إن ابن الكيزانى كان متواطئاً مع السلطان نور الدين زنكى على إضعاف المذهب الفاطمى والعمل على تنفير المصريين منه تمهيداً لاستخلاص مصر من الحكم الفاطمى وإعادتها إلى الخلافة العباسية ، وإن صلاح الدين الأيوبى كان حلقة الاتصال بين الرجلين ، فلما واتت لصلاح الدين الفرصة ، إذ كان الخليفة العاضد (وهو آخر الخلفاء الفاطميين) قد عينه خلفاً للوزير شاور سلطاناً على مصر ، فانتهز صلاح الدين ذلك فرصة للقضاء على الخلافة الفاطمية . ومهما يكن من أمر العلاقة بين ابن الكيزانى وصلاح الدين فإن الذى لا شك فيه هو أن أشعار ابن الكيزانى وقصائده ومواعظه وإرشاداته ومجالسه الصوفية وحلقاته الفقهية كانت كلها تمهد السبيل أمام العباسيين للعودة إلى أرض وادى النيل . ولا عجب فإن أشعار ابن الكيزانى وقصائده التى بين أيدينا تزخر بالمعانى والأفكار التى تساوق العقيدة السنية وبالتالى تخالف فى وضوح تام عقيدة الفاطميين . ومصداق هذا قوله :

داوم على ما أنت فيـــه   فإنمــا الدنيــا عــبر
عــوّدت نفسى الصــبر   والأجر الجزيل لمن صبر

والكيزانى فى هذه المقطوعة راض بالقدر والقضاء ، صابر على المحنة والبلاء وذلك ابتغاء مرضاة الله ، والظفر منه بجزيل الثواب ، وتلك لعمرى أحوال نفس مؤمنة قد صح اعتقادها وسلم إيمانها من الزيغ والضلال ، فهو — أعنى ابن الكيزانى — متمثل فى إيمانه قول النبى عليه السلام فى جوابه عن سؤال جبريل إياه عن الإيمان ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « الإيمان : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره من الله تعالى » . وهذا هو اعتقاد أهل السنة والجماعة ، وعليه فمحمد بن إبراهيم بن ثابت ، فى رأينا عالم من

(١) انظر العماد الأصفهانى — خريدة القصر وجريدة العصر — طبع القاهرة سنة ١٩٥٢ م ج ٢ ص ١٨ .

علماء السنة ، انتهى به الأمر إلى التصوف ، فهو إذن من أولئك الصوفية الذين جاء تصوفهم موافقاً لما كانوا عليه من مذهب أو اعتقاد قبل التصوف على ما فصلناه فى غير هذا المكان ، والقصد مما قدمناه — فى الكشف عن وجوه الشبه وعظم المماثلة بين مذهب ابن الكيزانى ومذهب أهل السنة — أن نبين مدى أثر ابن الكيزانى فى تطوير العقلية المصرية ونقلها من العقيدة الباطنية إلى الفكر السنى إذ أن من المسلم به لدى جميع الذين هم أرخوا لابن الكيزانى أنه كان يعلم جميع الطلاب ويربى المريدين ، والشيخ أو الأستاذ يؤثر بطبيعة الحال تأثيراً جوهرياً فى نفوس الطلاب والمريدين وبخاصة فيما يتعلق بالمسائل المذهبية والأمور الاعتقادية ، أعنى أن ابن الكيزانى كان ينشر بين طلابه ومريديه تعاليم أهل السنة ويلقنهم معتقداتهم . وهؤلاء الطلاب وأولئك المريدون كانوا بدورهم يبـــذلون قصارى جهدهم فى نشر تعاليم أهل السنة فى ربوع مصر ومختلف بلاد وادى النيل . ومن يقرأ شعر ابن الكيزانى يوافقنى على القول بأنه كان من أكبر وسائل نشر مذهب أهل السنة والدعاية له فى مختلف أوساط الأمة المصرية ، وذلك لأن شعر ابن الكيزانى يتصف بالسهولة واليسر فى الألفاظ والعذوبة والرقة فى المعانى والمضامين ، الأمر الذى كان يجعل حفظه فى متناول الجميع . والناس إذا ما حفظوا شعراً واستساغوه أنشدوه ورددوه فى مختلف المناسبات ، وفى ذلك ما فيه من نشر الأفكار وإذاعة التعاليم . هذا على أن أثر ابن الكيزانى فى تطوير العقلية المصرية من المذهب الإسماعيلى إلى مذهب أهل السنة والجماعة لم يكن مقصوراً على نظمه الشعر وتعليم الطلاب وتربية المريدين ، بل جاوز ذلك كله إلى جلب المتصوفة واستقدام شيوخ أهل السنة من المشرق والمغرب ومختلف ديار العروبة والإسلام . فمن جسروا على دخول مصر الفاطمية بفضل ابن الكيزانى وشهرة أمره وذيوع صيته عبد الرحيم القناوى وأبو الحجاج الأقصرى وهما من أقطاب التصوف السنى وأعلام فقهاء المالكية وكلاهما قدم مصر فى النصف الثانى من القرن السادس الهجرى واستقر فى أعالى الصعيد . فعبد الرحيم أقام فى قنا ، ويوسف أبو الحجاج أقام فى الأقصر . وقد كان لكلا الرجلين زوايا وربط ومجالس وحلقات كان الغرض منها تعليم الطلاب الفقه والحديث على طريقة أهل السنة من ناحية وتربية المريدين وتوجيه السالكين وفق قواعد وقوانين التصوف

السنى من ناحية أخرى . ولولا يوسف أبو الحجاج والشيخ عبد الرحيم لما سهل على السلطان صلاح الدين مقاومة المذهب الإسماعيلى فى أرض الصعيد؛ إذ كان المذهب الإسماعيلى قد تمركز فى إسنا وإدفو وغيرهما من مدن الصعيد وقراها . وقد كان من آثار ذينك الشيخين ظهور عدد من الخوانق والربط وكثير من المساجد الجامعة التى أنشئت فى قنا ودشنا ومنفلوط وأسوان وقوص، وطائفة من المدارس ذات الأثر الكبير فى نشر الفقه السنى وإذاعة التصوف فى ربوع الصعيد . وقد كان أن ظهر بفضل ذلك كله أعلام وأفذاذ فى الميدانين الصوفى والفقهى نذكر منهم على سبيل المثال الشيخ جلال الدين الدشناوى وخلفه العلامة تاج الدين وأبو المجد على بن وهب وابنه أبو الفتح تقى الدين المعروف بابن دقيق العيد . وهؤلاء وأمثالهم بحق قادة الفكر السنى وأعلام الفقه والتصوف المصطبغ بالصبغة السنية والذى كان أكبر وسيلة لمقاومة المذهب الإسماعيلى ومن أقوى دعائم الحكم السنى وتوطيد أركانه فى أرض وادى النيل .

وفى تقديرى أن الفضل فى ذلك كله يرجع — فى الحقيقة وواقع الأمر — إلى أبى عبد الله محمد بن إبراهيم بن ثابت المعروف بابن الكيزانى .

الفصل الحادى عشر

أثره فى الشعر

كان الشعراء المصريون قد أخذوا منذ أوائل القرن الخامس الهجرى يتحدثون فى قصائدهم عن العقيدة الإسماعيلية ويبينون للناس تعاليم الفاطميين . ومن ثم قصر أكثرهم قريضهم وحبسوا قرائحهم على خدمة السياسة الفاطمية ونشر الدعوة الإسماعيلية ، فأنتجوا لنا مجموعة ضافية من القصائد والأشعار بعضها فى مديح الخلفاء الفاطميين وذكر مآثرهم والإشادة بكرمهم وحسن سيرهم . . وبعضها الآخر فى شرح مبادئ العقيدة الباطنية ونشر التعاليم الفاطمية بطريقة تشبه إلى حد كبير طريقة العلماء اللغويين والبلاغيين المتأخرين الذين هم نظموا قواعد علومهم تيسيراً للحفظ وتقريباً للفهم وذلك كألفية ابن مالك فى النحو ، والسلم فى علم المنطق ، والجوهر المكنون فى علوم البلاغة . وقد كان المؤيد لدين الله الشيرازى من أكثر شعراء مصر الفاطمية تمثلا لتلك الطريقة العلمية فى إنشاء القصائد ونظم الأشعار إذ كان المؤيد الشيرازى يتبوأ أهم المناصب الروحية فى الدولة الفاطمية وأعنى بذلك مرتبة داعى الدعاة وهى وظيفة مذهبية تملى على صاحبها الجد فى نشر تعاليم ومبادئ العقيدة التى كان يعتنقها الفاطميون ؛ لذلك وجدنا صاحبنا يتوخى فى قرض شعره ونظم قصيده الموضوعات ذات الصبغة المذهبية والاتجاهات العقيدية بغية نشرها بين الناس عساها تشق طريقها إلى الشعور والإحساس ، وذلك دون شك أجدى فى نشر المبادئ من التزام طريقة المناقشة والجدال . ولا عجب فإن النظم بما يشتمل عليه من الجرس والموسيقى تستسيغه الآذان وينفعل به الشعور والوجدان ، أما النقاش والجدل فإنه إن استطاع الإقناع وأدى إلى التسليم والإذعان بفضل صحة المقدمات واستقامة الحجج ، فإن أثره فى نشر المبادئ والتعاليم العقيدية ضعيف قليل . وقد كان هذا الطابع التعليمى قد ساد الشعر المصرى فى أوائل القرن الخامس الهجرى . إذ كانت الدعوة الفاطمية آنذاك نشيطة قوية ودولتها وطيدة الأركان ، ذات هيمنة وغلبة وسلطان . أما فى

أخريات القرن الخامس وأوائل السادس فقد أخذت الدعوة فى الضعف والانحسار وذلك نتيجة للتفكك والانقسام الذى أخذ يتطرق إلى أمراء البيت الفاطمى وأتباعهم المخلصين ، الأمر الذى أدى فى النهاية إلى ضعف الدولة فى الداخل والخارج من الناحيتين السياسية والعسكرية ، ومن ثم وجد عدد من الشعراء الفرصة السانحة لهم فى أن يقلعوا عن إنشاء القريض فى المسائل المذهبية والأمور العقيدية وأن يتجهوا بعواطفهم وقرائحهم نحو المرأة والطبيعة فراحوا يتحدثون فى شعرهم عن جسم المرأة وصورها البشرية . كما وصفوا كذلك المظاهر الطبيعية وما كانوا يشاهدونه على ضفاف النيل من رياض أريضة ومروج أريجة وتحدثوا عن جمال الورود والأزهار وعن تغريد الطيور على الأشجار . وقد كان منهم عدد غير قليل قد اتجه ببعض شعره نحو الفكاهة والمرح وأنشأ القصائد الطوال والمقطعات القصار فى التظرف والإضحاك ، نذكر من هؤلاء وأولئك على سبيل المثال ابن أبى الرقعمق والأمير تميم ؛ وبالجملة فقد أخذ الشعراء المصريون فى أوائل القرن السادس الهجرى ينظمون القصائد ويقرءون الأشعار فى الغزل والتشبيب وفى التفكه والتظرف وفى وصف الحدائق والأزهار والطيور والأشجار وفى وصف الماء والسماء والشمس وقت الضحى وعند الأصيل . كان هذا كله من الشعراء المصريين مع استمرار الطابع الأول ، فى شعر المستمسكين بالنحلة والعقيدة والذين هم ارتدوا لباس الدين . والقصد من هذا أن أقول إن الشعر المصرى فى أخريات القرن الخامس وأوائل القرن السادس الهجريين أصبح ذا طابعين : الأول نسميه شعر العقيدة الفاطمية ، والثانى نطلق عليه اسم شعر الطبيعة والغزل . وكان الأول فى تقديرنا أبعد عن الفن والأدب وأدخل فى باب العلم والجدل . أما الثانى فإنه كان ألصق بالعواطف والوجدان وأقرب إلى طبيعة الفن وكنه الأدب .

وفى هذا الجو الأدبى والمهيع الشعرى ظهر على المسرح المصرى شاعر من نوع جديد هو أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن ثابت المشهور بابن الكيزانى ، فقد جاء الناس بقصائد وأشعار تختلف فى العبارة والصياغة وفى المعنى والمضمون عن كل ما ألفه المصريون وتعودوا قوله أو سماعه فى ظل الدولة الفاطمية من قصائد وأشعار سواء منها ما كان مصطبغاً بالصبغة المذهبية — كأشعار المؤيد الشيرازى — أو الأدبية كأشعار أبى الرقعمق والأمير تميم — حيث اتجه ابن الكيزانى فى نظم القصيد وإنشاء

القريض وجهة جديدة وتناول معانى وأغراضًا وتحدث عن حقائق وأمور تكاد أن تكون غريبة على المجتمع المصرى فى ذلك الحين، وأعنى بذلك ما ضمنه ابن الكيزانى شعره من الحديث عن النار والجحيم والجنة والنعيم وعما يصير إليه العصاة الفاسقون يوم القيامة من المذلة والهوان، وما ينتظر المؤمنين الصالحين يوم الحشر والنشر من الثواب الجزيل والأجر العظيم، ثم هاتيك القصائد وتلك الأشعار التى زخرت بلوعات الحب ومختلف صور الغرام، ولكنه حب وغرام من نوع جديد، إذ أن المحبوب هنا فى شعر الكيزانى ليس امرأة ولا شيئاً مادياً وإنما هو الله سبحانه وتعالى. وإليك مما قاله ابن الكيزانى فى المعنى الأول — على سبيل المثال :

داوم على ما أنت فيه فإنما الدنيا عبر
عودت نفسى الصبر والأجر الجزيل لمن صبر

ومما قاله فى المعنى الثانى — على سبيل المثال أيضاً

اصرفوا عنى طبيبى ودعونى وحبيبى
عللوا قلبى بذكراه فقد زاد لهيبى

فهو فى المثال الأول — كما ترى — يحض العباد والذاكرين من الطلبة والمريدين على مداومة الذكر والمحافظة على الحياة والقيام بالواجبات الدينية ثم هو من ناحية أخرى يدعو إلى الصبر والاحتمال وينهى عن التبرم والضجر مما يقع للناس فى هذه الدنيا من نازلات وملمات وما يمنون به فى حياتهم من المصايب والكوارث والنائبات وذلك كله بقصد الوعظ والإرشاد وتقوية الوازع الدينى ومحاربة النزوات والشهوات ومخالفة النفس والشيطان.

وفى المثال الثانى يتحدث ابن الكيزانى عن تجاربه الروحية وما مر به فى سلوكه إلى ربه من ضروب المكابدة والمجاهدة وما عرا قلبه فى حبه مولاه من وجد الهيام وحر الغرام. والقصد من هذا أن أقول إن شعر ابن الكيزانى ينقسم فى جملته إلى فنين رئيسين : الأول نسميه شعر الوعظ والإرشاد، والثانى أطلق عليه اسم الغزل الإلهى.

ومن يقرأ شعر ابن الكيزانى ويتدبر قصائده يجد أكثرها منحصراً فى هذين الفنين. هذا على أنى وجدت له شعراً قليلا قاله فى الزهد والحكمة، ومن يدرى لعل

له فى هذا الفن شعراً كثيراً لكنه ضاع ولم يصلنا منه إلا النزر اليسير . وأيّاً ما كان فإننا نستطيع أن نقول فى شىء من التسامح إن شعر ابن الكيزانى ينقسم إلى ثلاثة فنون : اثنان منها رئيسان لكثرة ماوصلنا عنه منهما من أشعار — والثالث منها فرعى وهو الزهد والحكمة .

وقد كان للشعر فى أساليبه الحديثة وموضوعاته الجديدة أثر كبير فى تطوير الشعر المصرى من طابعه الفاطمى إلى الطابع السنى إذ أصبح الشعراء المصريون فى أخريات القرن السادس الهجرى يصورون عواطفهم ويشرحون مواجيدهم وما كانت تنفعل به نفوسهم فى حبها نبى الإسلام ورسول السلام محمداً العربى عليه وعلى آله أفضل الصلاة وأزكى السلام، من جهة، ونحو الأماكن المقدسة وبلاد نجد والحجاز وفى الحديث عن المظعن والترحال وفى بكاء الأطلال والتشوق إلى الديار من جهة أخرى.

وخير مثال لهذا الفن الأخير ما رواه العلامة الإدفوى فى كتابه الطالع السعيد عن المهذب الأسوانى أنه قال[١] :

وقد وقفت على الأطلال أحسبها ... جسمى الذى بَعْدَ بُعْد الظاعنين بَلِى
أبكى على الرسم فى رسم الديار فهل ... عجبت من طلل يبكى على طللِ
وكل بيضاءَ لو مسّت أناملُهَا ... قميصَ يُوسف يوماً قُدَّ من قُبلِ
يُغنى عن الدرِّ والياقوت مَبْسَمُها ... لحسنها فلها حُلى من العطلِ
بالخد منى آثار الدموع كما ... لها على الخد آثار من القُبَلِ

فالشعر فى هذه الأبيات كما ترى قد حذا — برغم مكانته التى كان يتبوأها فى الدولة الفاطمية — حذو شعراء أهل السنة فى غير مصر من أهل الأقطار العربية والإسلامية الأخرى وذلك من حيث بكاء الأطلال والوقوف عند رسوم الديار وذكر الظاعنين من الأحبة والتشوق إليهم .

هذا على أن أثر ابن الكيزانى يظهر أكثر ما يظهر فى مهيع الشعر الصوفى . فقد ذكر ابن خلكان وغيره ممن أرخوه أو كتبوا عنه ؛ أنه كان له ديوان متداول بين الناس ، وقد حاولت العثور على ذلك الديوان فلم أعثر عليه ، ولكنى وجدت له

---

(١) انظر كمال الدين الإدفوى — الطالع السعيد — طبع القاهرة سنة ١٩١٤ م سنة ١٣٣٢ هـ ص ١٠٠ .

شعراً غير قليل ، رواه له العماد وغيره وهو فى جملته وتفصيله . وقد أثبته فى القسم الثانى من هذا الكتاب مرتباً على حروف المعجم . لا يخرج عما وجدناه من قبل عند ذى النون والشافعى وأبى على الروزبارى وإليك من شعره على سبيل التمثيل والاستشهاد قوله(١) :

اصرفوا عنى طبيبى ودعونى وحبيبى
عللوا قلبى بذكراه فقد زاد لهيبى
طاب هتكى فى هواه بين واش ورقيب
لا أبالى بفوات النفس ما دام نصيبى
ليس من لام وإن أطنب فيه بمصيب
جسدى راض بسقمى وجفونى بنحيبى

وقوله(٢) :

بربكما عرجا ساعة ننوح على الطلل الدارس
ففيض الدموع على رسمه يترجم عن صرف اليائس
وعهدى بغزلانه رتعا لدى ملعب بالدمى آنس
ولى فيهم شادن أهيف يفوق على الغصن المائس

وقوله(٣) :

جهد عين أن لا تذوق هجوعا وجفونى أن لا تكف دموعا
ولسانى أن لا يزال مقرّا أننى لست للعهود مضيعا
وفؤادى أن لا يلم به الصبر وسقمى أن لا يورم نزوعا
ولقد أودع الغرام بقلبى زفرات أضحى بها مصدوعا
وإذا أطنب العذول فقد عاهدت سمعى أن لا يكون سميعا
وحرام على التلهف ألا يبرح أو يحرق الحشا والضلوعا
وبعيد أن يجمع الله شملى بالمسرات أو نعود جميعا

فابن الكيزانى فى هذه الأشعار كما ترى ، عاشق لله ، هائم فى حب مولاه من

(١) الخريدة جـ ٢ ص ٢٥ .
(٢ و ٣) الخريدة : جـ ٢ ص ٢٧ .

جهة ، ثم هو واعظ زاهد من جهة أخرى . فهذان الغرضان ، أعنى الوعظ والإرشاد والحب الإلهى كانا هدف الشعر الصوفى ومداره فى مصر منذ أوائل القرن الثالث حتى أخريات القرن السادس ، فالشافعى وذو النون فى القرن الثالث الهجرى ، وأبو على الروزبارى ومنصور بن إسماعيل فى القرن الرابع ، فكل من هؤلاء وغيرهم قد أنشأ القريض فى الزهد والحكمة والوعظ والإرشاد من جهة ، وفى المحبة الإلهية والعشق الإلهى من جهة أخرى . وإن كان قد غلب على البعض التصوف ، وعلى الآخرين الاشتغال بالفقه ، فمثل الفريق الأول فى القرن الثالث ذو النون وفى القرن الرابع الروزبارى ، ومثل الفريق الثانى فى القرن الثالث الشافعى وفى الرابع منصور ابن إسماعيل، على ما سبق أن بيناه والقصد من هذا أن أقول : إن شعر الصوفية النظريين وزهاد الفقهاء كان فى جملته مختلطاً بعضه ببعض من حيث المعانى والأغراض متشابهاً إلى حد كبير فى الأساليب ، وطرق التعبير ، وإن كان قد غلب على شعر الذين غلب عليهم التصوف طابع الحب والغزل الإلهى ، وعلى شعر الذين غلب عليهم الاشتغال بالفقه وعلوم الشريعة : طابع الزهد والحكمة والوعظ والإرشاد . وفى شعر ابن الكيزانى هذا — المتوفى فى العقد الثانى من النصف الثانى من القرن السادس — يتجلى المزج بين طابع الزهد والحكمة والوعظ والإرشاد من ناحية ، وطابع الغزل والحب الإلهى من ناحية أخرى ، الأمر الذى يتيح لنا القول ، بأن تمييز شعر زهاد الفقهاء أو المتصوفة العمليين عن شعر طائفة الصوفية النظريين لم يظهر بشكل بين وعلى صورة واضحة إلا فى القرن السابع الهجرى على ما فصلناه فى غير هذا الكتاب .

وقصارى القول فى هذا المقام أن يقال إن ابن الكيزانى قد أعاد الشعر الصوفى السنى إلى أرض وادى النيل بعد أن خلت منه زهاء قرن من الزمان .

والكلام فى هذا المجال يقتضى عمق القول وكثرة التفصيل وقد هممنا أن نفيض هنا فى هذا المقام غير أننا رأينا إرجاءه إلى موضوعه فى الباب الثانى من القسم الثانى من الكتاب .

الفصل الثانى عشر

ابن الكيزانى فى رأى الأدباء والنقاد السابقين

بعد أن بينت فى شىء من التفصيل أثر ابن الكيزانى فى تطوير الشعر المصرى أثناء القرن السادس الهجرى ، أنتقل إلى بيان فصاحته وبلاغته ومدى تجويده للشعر والمكانة التى بلغها كشاعر فى رأى الأدباء والناقدين من رجالات القرنين السادس والسابع الهجريين والذين حذوا حذوهم وارتأوا ما ارتأوا وقالوا عنه مثل الذى قاله رجال النقد والأدب فى القرنين الثامن والتاسع الهجريين فأقول:

ذكره العماد الأصفهانى فى خريدته فامتدح شعره وأطراه ووصف كلامه بالبلاغة والفصاحة واستجاد معناه ، إذ قال فى ترجمته له ما نصه :

« لكلامه رقة وطلاوة ، ولنظمه عذوبة وحلاوة »[1] .

ثم قال العماد بعد ذلك بقليل يصف ديوانه ما نصه :

« له ديوان شعر يتهافت الناس على تحصيله وتعظيمه وتبجيله لما أودع فيه من المعنى الدقيق واللفظ الرشيق والوزن الموافق والوعظ اللائق والتذكير الرائع الرائق القافية ، والقافية آثار الحكم والكلمة الكاشفة أسرار الكرم » .

فابن الكيزانى فى نظر العماد الأصفهانى — كما هو واضح من كلامه الذى أسلفته — فصيح الألفاظ حسن العبارة غزير المعانى ، جيد التركيب ، رائع الوصف ، بديع التصوير ، قد خلا شعره من الركاكة والإسفاف. واتصف بالجودة والجمال ، رقيق المعانى ، عذب الكلام سلس العبارة ، حلو المقال .

أما العلامة أبو محمد يوسف المشهور بسبط بن الجوزى ، فقد وصف فى كتابه المرآة ابن الكيزانى بالفصاحة والبلاغة ، ثم ذكر ديوانه على وجه الاستحسان ، فقال[2] :

---

(١) العماد الأصفهانى — خريدة القصر — طبع القاهرة سنة ١٩٥٢ م جـ ٢ ص ١٨ .

(٢) انظر يوسف سبط بن الجوزى — المرآة (طبع فرنكفورت) شيكاغو سنة ١٩٠٧ جـ ٨ ص ١٥٧ .

« وديوانه بمصر مشهور وممدوح مشكور ، ولقد وقفت عليه فى مصر فرأيته مليح العبارة ، صحيح الإشارة ، فيه دقة وحلاوة ، وعليه طلاوة » .

فصاحب المرآة كما ترى يتفق فى وصفه شعر ابن الكيزانى مع العماد الأصفهانى .

أما ابن خلكان ، فقد قال[١] :

« وله ديوان شعر أكثره فى الزهد ، ولم أقف عليه ، وسمعت له بيتاً واحداً أعجبنى ، وهو (من الخفيف) .

وإذا لاق بالمحب غـرام ··· فكذا الوصل بالحبيب يليق

وفى شعره أشياء حسنة » .

فكلام ابن خلكان فى رأينا يتفق مع ما قاله سبط بن الجوزى والعماد الأصفهانى ، إذ أنه (أعنى — ابن خلكان) — قد استجاد البيت الذى سمعه من شعر ابن الكيزانى وذكر أن فى شعره أشياء حسنة بالرغم من أنه لم يقف على الديوان .

أما ابن سعيد المغربى ، فإنه قد خالف ابن خلكان وسبط بن الجوزى والعماد الأصفهانى فى الحكم على شاعرية ابن الكيزانى ووصف ديوانه إذ استغثه ووصفه بالركاكة والإسفاف وبأن شهرته ليست دليلا على جودته إذ كثيراً ما يحسن السماع بالشىء فى حين تستقبح رؤيته ومصداق ذلك المثل العربى المشهور « تسمع بالمعيدى خير من أن تراه » .

وإليك ما قاله موسى بن سعيد المغربى عن شاعرية ابن الكيزانى وديوانه[٢] :

« ووقفت على ديوانه وهو مشهور عند الناس قريب من أفهام العامة غير مرض عند صدور الشعراء وأصحاب غرض الكلام وفرسان النظام . ولم أكتسب من ديوانه ، وقد ضجرت من اختياره ومطالعته ، شيئاً تهش النفس إليه ، وإنما أوردت ترجمته لشهرة ذكره وديوانه ، وكثيراً ما يباع فى سوق الفسطاط وسوق القاهرة . وكان من لا يعرف معانى الشعر المستحسنة وألفاظه المستبدعة يحضنى على الوقوف

---

(١) ابن خلكان وفيات الأعيان — طبع القاهرة سنة ١٩٤٨ — ج ٤ ص ٨٦ .

(٢) انظر ابن سعيد المغربى — المغرب فى حلى المغرب — طبع القاهرة سنة ١٩٥٣ ج ١ (القسم الخاص بمصر) .

عليه ، فلما وقفت عليه أنشدنى متمثلا (أنا المعيدى فاسمع بى ولا ترنى) وسكن العراق وفيه يقول :

لم تكن بالعراق دارى ولكن لهواكم سكنت أرض العراق

وذاكرت فيه أحد الأدباء بمصر وأعلمته أنى وقفت على ديوانه ، فلم أر فيه ما يصلح للاختيار ، فأنشدنى له أبياتاً ، لم أقف عليها ولا على ما يقاربها فى ديوانه المذكور إلا أن تكون نسخة أخرى :

إذ نفحت رياح الغور يوماً فإن الدمع ينجدنى ويغرى
تذكرنى الذى قد غاب عنى فيلقانى وألقاه بذكر
نأى عنى قلبى مثل برق وأجفانى سحاب ذات قطر
ويالهفى عليه ثم لهفى نأى بنواه يوم البين صبرى
أبيت معللا روحى بروح الـ نسيم من أرضه أيان يسرى
ولا والله ما ذاقت جفونى مناماً ولا أخليت ذكرى
وواأسفى على أن ذبت شوقاً وأحسبه بذلك ليس يدرى

فكلام ابن سعيد هذا كما ترى ظاهر الذم كثير التحامل ينم فيما أظن عن قلب مضغن ونفس مستاءة ، إذ أن العبارات التى أوردها ليست من قبيل النقد الأدبى فى شىء لأن النقد كما هو معروف وصف وتقييم للنص الأدبى — وذلك إذا ما كان من قبيل المنهج التصاعدى — بما فيه من حسن وقبح أو جودة ورداءة : والناقد إذا حكم حكماً سواء أكان بالذم أم الإطراء فإنه يبرر حكمه ويسوق الدليل عليه ، وذلك بأن يقول مثلا هذا البيت أو هذا الشعر ردىء لأنه اشتمل على كذا وكذا وورد فيه كذا وكذا ! .

أما ابن سعيد المغربى فإنه فى نقده ديوان ابن الكيزانى ووصفه شعره بما قد رأيت غير جار على سنن النقد السليم لأنه لم يذكر كلمة رديئة أو بيتاً غثاً أو معنى ركيكاً على سبيل التشخيص والتعيين وإنما قال ما قال على سبيل الإجمال والتعميم مع عدم الاستناد إلى أى حجة أو ذكر أى دليل يؤيده فى كثير أو قليل .

وأياً ما كان ، فإن ابن سعيد هو وحده الذى ذم شعر ابن الكيزانى .

هذا هو موقف أدباء ونقاد القرنين السادس والسابع الهجريين من شاعرية ابن الكيزانى وديوانه وذلك على سبيل الإجمال غير المخل والإيجاز غير المضر بالغاية والمقصود :

أما أدباء ونقاد القرنين الثامن والتاسع الهجريين فإنهم لم يأتوا — فيما كتبوه عن ديوان ابن الكيزانى وشاعريته — بشيء جديد ، بل إن كل ما قالوه لا يخرج فى الحقيقة وواقع الأمر عن كونه محاكاة أو تكراراً لما كتبه عنه السابقون .

فهذا العلامة الصفدى وهو شاعر مفلق وجهبذ حاذق ذواقة للشعر يجيد نقده ويحسن تقسيمه ، لم يزد حين عرض للكلام عن ديوانه على أن ردد ما قاله ابن خلكان فى كتابه وفيات الأعيان والعلامة محيي الدين يوسف سبط بن الجوزى فى كتابه مرآة الزمان وكل ما زاده الصفدى على طولهما هو إرجاعه بعض معانى شعره إلى ما طرقه من قبل الشعراء السابقون ، إذ يقول بعد أن روى هذين البيتين[1] :

يا من يتيه على الزمان بحسنه ... إعطف على الصب المشوق التائه

حتى يخاف على احتراق فؤاده ... أسفاً لأنك منه فى سوادئه

ما نصه[2] :

قلت وهذا معنى مشهور أشبه شيء بقول الأرجانى :

يرمى فؤادى وهو فى سودائه ... أثره لا يخشى على حوبائه

وقصد الصفدى من هذا أن يقول إن المعنى الذى عبر عنه ابن الكيزانى فى البيتين المذكورين ليس مبتكراً ولا هو بالأمر الجديد بل إنه قديم مطروق وهذا هو ما يعبر عنه فى علم البديع بالسرقة الأدبية ولست أدرى أكان الصفدى يريد من ذلك المدح أم الهجاء لأنه لم يسفر عن مراده إذ أرسل الكلام خالياً من كل تصريح أو تلميح بالاستحسان أو الاستهجان إذ من المعروف أن السرقة الأدبية تكون صفة مدح للسارق تارة وتكون ذماً له تارة أخرى على ماهو مقرر فى أصول نقد الأدب العربى القديم .

---

(١) انظر خليل بن أيبك الصفدى — الوفى بالوفيات — طبع إستانبول سنة ١٩٣١ ج١ ص ٣٤٧.

(٢) انظر خليل بن أيبك الصفدى — الوفى بالوفيات — طبع إستانبول سنة ١٩٣١ ج ١ .

أما شمس الدين محمد بن الزيات صاحب الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة والمتوفى فى أوائل القرن التاسع الهجرى فإنه لم يزد حين عرض لشعر ابن الكيزانى على أن قال : « وقد استحسن أبو الفرج بن الجوزى شعره »[١] .

أما العلامة السخاوى فإنه اقتصر فى وصف شعر ابن الكيزانى على قوله : « وله شعر رائق »[٢] .

هذا ومما أوردناه من آراء وأقوال مؤرخى وأدباء القرنين الثامن والتاسع الهجريين يظهر لنا فى وضوح أن المتأخرين يتفقون مع السابقين فى نعت ابن الكيزانى بالفصاحة والبلاغة ووصف شعره بالحسن والجودة .

وبناء على ما قدمناه من أقوال المؤرخين وآراء الأدباء الناقدين فى شعر ابن الكيزانى وأدبه نستطيع أن نقول إنه كان خطيباً مصقعاً وشاعراً مفلقاً . غير أننا لا نجد مجالا لتبين طاقته الخطابية وتفهم مكانته فى دنيا الخطابة ولا أن نحدد مرتبته على وجه التعيين بين الخطباء ، وذلك لأنه لم يصل إلينا شيء من خطبه حتى نستخلص منها خصائصه الخطابية .

وكل ما لدينا من دليل على نعته بالخطابة وسلكه فى عداد الخطباء هو قول الذين هم ترجموا له أو أرخوا أنه كان واعظاً مذكراً والوعظ والتذكير إنما يأتيان بالكلام المنثور الذى يخرج صاحبه عادة مخرج الخطابة . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإنهم قالوا إن له كتابين اسم الأول الرقائق واسم الثانى ملباك الخطب .

أما عن شاعريته وقدرته على نظم القريض فإن لدينا من شعره ونظمه ما يكفى للحكم له أوضده على ما سوف نعرض له بالبسط والتحليل فى موضعه من القسم الثانى من هذا الكتاب . هذا على أننا نستطيع أن نقول هنا على وجه الإجمال والاقتصار إنه كان شاعراً مجيداً قد اتصف بحسن اختيار الألفاظ والقدرة على توخى العمق فى المعنى مع ظهور القصد ووضوح الغرض فى تراكيب تتصف بسهولة اللفظ ويسر العبارة واستقامة الأسلوب .

---

(١) انظر محمد بن الزيات — الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة طبع القاهرة سنة ١٩٠٧ ص ٣٠٣ .

(٢) انظر نور الدين بن أحمد السخاوى — تحفة الأحباب وبغية الطلاب — طبع القاهرة سنة ١٩٣٧ الطبعة الأولى ص ٣٨٥ .

الفصل الثالث عشر

وفاته والمكان الذى دفن فيه

بعد أن تكلمت عن نشأة ابن الكيزانى وألقيت الضوء على حياته العلمية وتفهمت مذهبه الفقهى ونشاطه الصوفى وكشفت عن اتجاهه العقيدى وبسطت موقفه من الشريعة وعلوم أهل الظاهر ، وبذلت كل ما فى وسعى أن أرسم للقارئين صورة واضحة المعانى بينة القسمات عن شعره وأدبه ، ثم عرضت بالشرح والتبيان لموقف المؤرخين والأدباء الناقدين منه وفصلت آراءهم فيه، بعد ذلك كله أنتقل إلى ذكر وفاته والمكان الذى دفن فيه وذلك باستعراض الروايات المختلفة المتعددة كما هى فى مصادرها . فأقول :

ذكر العماد الأصفهانى وفاة ابن الكيزانى والمكان الذى دفن فيه فقال :

« توفى سنة ستين وخمسمائة ودفن عند قبر إمامنا الشافعى رضى الله عنه »(١) .

أما ابن تغرى بردى فقد قال عن وفاته والمكان الذى دفن فيه ما نصه(٢) :

« توفى الشيخ المقتصد محمد بن إبراهيم الكيزانى أبو عبد الله الواعظ المصرى ودفن عند قبر الإمام الشافعى بالقرافة الصغرى واستمر هناك إلى أن نبشه الشيخ نجم الدين الجيوشانى فى أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وأخرجه ودفنه بمكان آخر فى القرافة » .

أما ابن خلكان فقد قال(٣) :

توفى ليلة الثلاثاء التاسع من شهر ربيع الأول وقيل بل توفى فى المحرم سنة

---

(١) العماد الأصفهانى – خريدة القصر وجريدة العصر – طبع القاهرة سنة ١٩٥٢ م ج ٢ ص ١٨ .

(٢) ابن تغرى بردى – النجوم الزاهرة وملوك مصر والقاهرة – ج ٥ ص ٣٧٦ طبع القاهرة سنة ١٩٣٥ .

(٣) ابن خلكان – وفيات الأعيان – طبع القاهرة ج ٤ ص ٨٦ .

اثنتين وستين وخمسمائة بمصر ، ودفن بالقرب من قبة الإمام الشافعى رضى الله عنه بالقرافة الصغرى ثم نقل إلى سفح المقطم بقرب الحوض المعروف باسم أم مودود ، وقبره مشهور هناك يزار ، وزرته مراراً ، رحمه الله تعالى .

أما الصفدى وابن الزيات والعلامة السخاوى فإنهم لم يذكروا عند كلامهم عن وفاته والمكان الذى دفن فيه شيئاً يختلف عما قد ذكره صاحب المرآة والعماد وابن خلكان .

هذا ومما أوردناه من أخبار وفاته ومكان دفنه نستطيع أن نقول إن المؤرخين متفقون على مكان دفنه وما حدث له بعد ذلك من نبش وتغيير لمكان الدفن وكل ما وجدناه من خلاف بين المؤرخين وأصحاب التراجم فهو منوط بعام الوفاة إذ ذهب صاحب المرآة والعماد الأصفهانى إلى أن وفاته كانت عام ستين وخمسمائة هجرية على حين ذكر ابن خلكان أنها سنة اثنتين وستين وخمسمائة .

القسم الثانى

شعر ابن الكيزانى ــ عرض وتحليل

الفصل الأول

وصف إجمالى

بعد أن فرغت من جمع القصائد والأشعار التى وصلت إلينا عن ابن الكيزانى . وبعد أن تحققت من صحة نسبتها إليه وذلك بحسن التثبت من صدق الرواية وصحة الإسناد ، ثم أثبتها مرتبة على حروف المعجم . بعد ذلك كله أنتقل إلى دراسة شعر ابن الكيزانى وتفهمه وتحليل أسلوبه . وقد رأيت أن يتألف هذا الباب من فصلين : الأول أتناول فيه شعر ابن الكيزانى بالوصف الإجمالى ، والثانى فى نقده وتحليله . وسأبدأ بالأول فأقول :

لقد نظرت فى كل ما صح لدى من شعر ابن الكيزانى فى دقة وإنعام فألفيته ينقسم — على سبيل الإجمال — إلى فنين رئيسين :

أسمى الأول شعر الحب والغزل الإلهى ، وأطلق على الثانى اسم فن الوعظ والإرشاد .

وإليك من قبيل الأول — على سبيل المثال — قوله :

اصرفوا عنى طبيبى ودعونى وحبيبى
عللوا قلبى بذكراه فقد زاد لهيبى
طاب هتكى فى هواه بين واش ورقيب
لا أبالى بفوات النفس ما دام نصيبى
ليس من لام وإن أطنب فيه بمصيب
جسدى راض بسقمى وجفونى بنحيبى

وأما فن الوعظ والإرشاد ، فإليك منه على سبيل الاستشهاد هذه الأبيات :

قف على الباب طالباً ودع الدمع ساكبا
وتوسل به إليه من الذنب تائبا
تلق من حسن فضله عند ذاك العجائبا
ثم خف منه أن يرا ك على الذنب راكبا
فهو يجزى على اليسير ويعطى الرغائبا
زينة العبد بالتقى فاجعل الصدق صاحبا

ولما كان وصف شعر ابن الكيزانى — من الوجهة الإجمالية — وتقسيمه إلى فنونه الرئيسة يقتضى التعرف على فنون الشعر الصوفى فى مصر فى العصور السابقة ، فقد رأيت أن أستعرض نشأة الشعر الصوفى وتطوره منذ القرن الأول حتّى القرن السادس — الذى هو عصر ابن الكيزانى موضوع هذه الدراسة — فأقول :

نشأ الأدب الصوفى فى الفسطاط على شكل قصص ومواعظ وإرشادات إبان القرن الأول الهجرى ، وذلك على يدى سليم بن عتّر التجيبى . وقد ظل على تلك الحال بقية القرن الأول وثلاثة أرباع القرن الثانى إذ لم نجد فى كل ما رجعنا إليه من كتب التاريخ والتراجم والأدب قصيدة أو أبياتاً ولو قليلة لرجل من أهل النسك والعبادة والتصوف والزهادة . أما فى الربع الأخير من القرن الثانى وفى النصف الأول من الثالث فإننا وجدنا الشعر الصوفى يظهر بجلاء وفى كثرة لافتة عند شيبان الراعى وذى النون المصرى ومحمد بن إدريس الشافعى والربيع بن سليمان بن عبد الجبار .

وإليك على سبيل المثال هذه الطائفة من أشعار الشافعى والربيع وذى النون .
فمن شعر ذى النون(١) :

يا ذا الذى أنس الفؤاد بذكره أنت الذى ما إن سواه أريد
يا منيتى دون الأنام وبغيتى يا من له كل الأنام عبيد
تفنى الليالى والزمان بأسره وهواك غض فى الفؤاد جديد

(١) شعبان الحرنفش — الروضة الفائقة — طبع القاهرة ص ١٦٠ .

ومن شعر الشافعى رضى الله عنه [١] :

إن الذى رزق اليسار ولم يصب مجداً ولا أجراً لغـير موفقِ
فالجـدُّ يدنى كل أمر شاسع والجَـدُّ يفتح كل باب مغلقِ
وإذا سمعت بأن مجدوداً حـوى عـوداً فأثمر فى يديه فحققِ
وإذا سمعت بأن محروماً أتى ماء ليشربه فغاض فصدقِ
وأحق خلق الله بالهم امـرؤ ذو ِهمَّـة يبـلى بعيش ضيقِ
ومن الدليل على القضاء وكونه بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمقِ

ومن شعر الربيع بن سليمان بن عبد الجبار المتوفى سنة ٢٧٠ هـ [٢] :

صبراً جميـلا ما أسرع الفرجا من صدق الله فى الأمور نجا
من خشى الله لم ينـله أذى ومن رجا الله كان حيث رجا

ومما أوردناه من شعر الشافعى وذى النون وغيرهما يتضح لنا أن شعر الصوفية النظريين والعمليين– أو بعبارة أخرى أقول : إن شعر المتصوفين وزهاد الفقهاء – قد ظهر فى مصر إبان الربع الأخير من القرن الثانى الهجرى ثم كثر وانتشر وتعدد قائلوه فى أوائل القرن الثالث . وقد تأملت أكثر ما وصل إلىّ من شعر الشافعى وذى النون فوجدته فى جملته سهل العبارة واضح المعنى لا عمق فيه ولا تعقيد ولا غموض ولا إبهام . أما فى القرن الرابع الهجرى فقد تعقدت أساليبه وصعبت عباراته وعمقت معانيه وذلك كالذى وجدناه عند منصور بن إسماعيل – من زهاد الفقهاء – وأبى على الروزبارى – من الصوفية النظريين .

وإليك من شعر الأول على سبيل المثال قوله :

قد قلت إذ مدحوا الحياة فأكثروا للموت ألف فضيلة لا تعرف
منها أمان لقائه بلقائه وفراق كل مصاحب لا ينصف

(١) انظر تاج الدين السبكى – طبقات الشافعية الكبرى – جـ ١ ص ١٥٩ و ١٦٠ .
(٢) المرجع السابق . جـ ٢ .

ومن شعر الثانى — على سبيل المثال أيضاً — قوله :

بك كتمان وجده بك عنــه   لك منه وعنه مالك منه
من إذا لاح لائــح مَشْرِقٌ   هام وجداً عليك إن لم تكنه
وإذا قال لا أقــول ببين   بان عنــه فبان إن لم تبنــه
يا فتى الحب يا فتى الحق سرى   عنك مستودع لديك فضه

فالروزبارى فى شعره هذا — كما ترى — يتلاعب بالألفاظ ، ويلتوى فى التعبير مع إخفاء المعنى ، وإبهام الغرض ، حتى لا يتسنى لغير المتصوفة أو أولى الدراية بعلم الباطن ، فهم القصد ، ومعرفة المراد ، وبالجملة فإن شعر التصوف المصرى فى القرن الرابع الهجرى ، قد تعقدت أساليبه وبعدت أغراضه ودقة معانيه الأمر الذى يحملنا على الاعتقاد بأن الصوفية فى مصر قد تأثرت أثناء القرن الرابع الهجرى إلى حد كبير بمختلف الأفكار الفلسفية والنظريات الكلامية والأساليب المنطقية .

أما القرن الخامس الهجرى فإننا لم نجد فيه شيئاً من الشعر الصوفى لأن المتصوفين المصريين قد هجروا مصر إلى الأقطار العربية والإسلامية الأخرى ولم يبق فى ربوع مصر أحد من رجال التصوف السنى سوى رجلين ماتا فى أخريات النصف الأول من القرن الخامس الهجرى ذكرهما جلال الدين السيوطى فى كتابه « حسن المحاضرة » ضمن من ذكرهم من الزهاد والنساك والمتصوفين الذين هم كانوا يعيشون فى مصر . ولم يذكر السيوطى لأى من الرجلين شعراً على الإطلاق كما أنه لم يذكر من المتصوفين والناسكين سواهم فى هذا القرن .

وقد سبق أن فصلنا القول فى العوامل والأسباب التى جعلت رجال السنة من المتصوفين والفقهاء الزاهدين يهجرون مصر طيلة القرن الخامس الهجرى .

أما فى القرن السادس الهجرى فإن الشعر الصوفى قد عاود نشاطه فى مصر من جديد وذلك بفضل أبى عبد الله محمد بن إبراهيم المشهور بابن الكيزانى الذى هو مدار البحث والدراسة فى هذا الكتاب وقد ذكر العماد الأصفهانى وابن سعيد المغربى وسبط بن الجوزى وابن خلكان وغيرهم أنه كان لابن الكيزانى ديوان متداول بين الناس ، وقد حاولت العثور على ذلك الديوان فلم أعثر عليه ، لكنى وجدت

له شعراً غير قليل ، رواه له العماد وغيره ، وهو فى جملته وتفصيله لا يخرج عما وجدناه من قبل عند ذى النون والشافعى وأبى على الروزبارى وإليك من شعره على سبيل التمثيل والاستشهاد قوله[1] :

جهد عينى أن لا تذوق هجوعاً ... وجفونى أن لا تكف دموعا
ولسانى أن لا يزال مقراً ... أننى لست للعهود مضيعا
وفؤادى أن لا يلم به الصبر ... وسقمى أن لا يروم نزوعا
ولقد أودع الغرام بقلبى ... زفرات أضحى بها مصدوعا
وإذ أطنب العذول فقد ... عاهدت سمعى أن لا يكون سميعا
وحرام على التلهف ألا يبرح ... أو يحرق الحشا والضلوعا
وبعيد أن يجمع الله شملى ... المسرات أو نعود جميعا

وقوله :

إن كنت لابد المخالط للورى ... فاصبر فإن من الحجا أن تصبرا
وإذا لقوك بمنكر من فعلهم ... فتلق بالمعروف ذاك المنكرا
كالأرض ملقى فوقها أقذارها ... أبداً وتنبت ما يروق المنظرا

فالكيزانى فى هذه الأشعار ، كما ترى ، عاشق لله ، هائم فى حب مولاه من جهة ، ثم هو واعظ زاهد من جهة أخرى ، فهذان الغرضان أعنى الوعظ والإرشاد والحب الإلهى كانا هدف الشعر الصوفى ومداره فى مصر منذ أوائل القرن الثالث حتى أخريات القرن السادس ، فالشافعى وذو النون فى القرن الثالث الهجرى وأبو على الروزبارى ومنصور بن إسماعيل فى القرن الرابع ، فكل من هؤلاء وغيرهم قد أنشأ القريض فى الزهد والحكمة والوعظ والإرشاد من جهة ، وفى المحبة الإلهية والعشق الربانى من جهة أخرى .

وإن كان قد غلب على البعض التصوف ، وعلى الآخرين الاشتغال بالفقه فمثل الفريق الأول فى القرن الثالث ذو النون وفى القرن الرابع الروزبارى ، ومثل

---

(١) العماد الأصفهانى — خريدة القصر وجريدة العصر — طبع القاهرة سنة ١٩٥٢ م جـ ٢ ص ٢٧ .

الفريق الثانى فى القرن الثالث الشافعى وفى الرابع منصور بن إسماعيل ، على ما سبق أن بيناه فى صدر هذا الفصل . والقصد من هذا أن أقول إن شعر الصوفية النظريين وزهاد الفقهاء كان فى جملته مختلطاً بعضه ببعض من حيث المعانى والأغراض متشابهاً إلى حد كبير فى الأساليب وطرق التعبير وإن كان قد غلب على شعر الذين غلب عليهم التصوف طابع الحب والغزل الإلهى وعلى شعر الذين غلب عليهم الاشتغال بالفقه وعلوم الشريعة طابع الزهد والحكمة والوعظ والإرشاد . وفى شعر ابن الكيزانى المتوفى فى العقد الثانى من النصف الثانى من القرن السادس يتجلى المزج بين طابع الزهد والحكمة والوعظ والإرشاد من ناحية ، وطابع الغزل والحب الإلهى من ناحية أخرى ، الأمر الذى يتيح لنا القول ، بأن تمييز شعر زهاد الفقهاء أو المتصوفة العمليين من شعر طائفة الصوفية النظريين لم يظهر بشكل بين وعلى صورة واضحة إلا فى القرن السابع الهجرى على ما فصلناه فى كتابنا الذى نشرته دار المعارف تحت عنوان « الأدب الصوفى فى مصر فى القرن السابع الهجرى » وقصارى القول فى هذا المقام أن يقال إن شعر ابن الكيزانى ينقسم فى جملته وتفصيله من حيث المعانى والمضامين ومن جهة الأساليب وطرق التعبير إلى قسمين رئيسين — هما على ما سبق أن قلته — شعر الغزل والحب الإلهى وشعر الوعظ والإرشاد .

هذا على أن كثيراً من قصائد ابن الكيزانى قد جمعت الواحدة منها فى عقدها بين الفنين . إذ أن ابن الكيزانى كان يهدف من نظم قصيده فى أكثر الأحيان إلى غرضين اثنين : الأول شرحه مواجيده ومشاعره والتعبير عن عواطفه وإحساساته وتصوير ما يعترى قلبه فى حب ربه من شدة الشوق ولعج الهوى وحر الغرام . والثانى هو وعظ الناس وإرشادهم إلى ما فيه خيرهم فى الدنيا والآخرة من ناحية وإلى ما فيه صلاح الجماعات البشرية والمحافظة على تعاليم الدين من ناحية أخرى .

الفصل الثانى

شعر ابن الكيزانى ـ نقد وتحليل

تناولنا فى الفصل السابق فنون شعر ابن الكيزانى وتياراته على سبيل الوصف الإجمالى . وفى هذا الفصل نتناولها إن شاء الله بالدرس الفنى التحليلى . على أننا سنلتزم هنا كذلك ما جرينا عليه هناك من تقسيم شعر ابن الكيزانى من الوجهة الفنية والصبغة الأدبية إلى قسمين رئيسين مختلفين من حيث الموضوعات أو المضامين من جهة ومن حيث الأساليب ونسق التعبير من جهة أخرى . وذلك مع عدم الاختلاف فى التسمية وأساس التقسيم ، ولما كنا قد اتخذنا فى الفصل السابق أسلوب المؤرخ الأدبى فيما عرضنا له هناك من تبيان أنواع شعر ابن الكيزانى على الوجه الإجمالى ثم تتبع خطوات تلك الفنون وما مرت به من أطوار منذ نشأتها حتى الصورة التى وجدناه عليها لدى ابن الكيزانى فى القرن السادس الهجرى ـ أو بعبارة أخرى ـ أقول :

لما كنا قد استعملنا هناك ذلك الأسلوب الذى هو إلى البحث العلمى أقرب منه إلى النقد الأدبى ، فقد رأينا أن نسلك فيه طريقة البحث التنازلى وهى التى تبدأ بالكليات أو الأجناس العليا وتنتهى إلى الجزئيات أو الأنواع السفلى .

أما هنا فإننا نصطنع أسلوب الناقد الأدبى بالمعنى الأخص أو المحلل الفنى بأدق معناه ، لذلك فإننا آثرنا استخدام طريقة البحث التصاعدية وهى التى تبدأ بالجزئيات وتنتهى إلى الكليات ، أعنى أننا سوف نستعرض النص الأدبى ثم أبذل الجهد فى تبيان العوامل والمؤثرات التى أدت إلى حالة التوليد الأدبى ، أو بعبارة أخرى ، أقول التى لابست عملية الخلق والإبداع ، وأعنى بالخلق والإبداع هنا تلك المرحلة التى يمر بها النتاج الأدبى أو العمل الفنى فى وجوده الذهنى قبل ظهوره إلى الخارج أو الوجود الحسى بواسطة التعبير الأدبى ، وتلك المرحلة أو ذلك الطور هو عين ما يعبر عنه فى اللغة العربية بكلمة جاش أو حاك وذلك فى مثل قول القائل :

« هذا معنى قد جاش فى الصدر أو جاش به الصدر . ودار فى الخلد أو حاك فى النفس » .

وبعد هذا نتفهم معنى النص ونبين مغزاه ، ثم نتبين ما فى ذلك النص الذى نستعرضه من صدق التعبير الأدبى وروعة التصوير الفنى ، وبعد ذلك كله نبين نوع التأثير الفنى المقصود على مشاعر السامعين ووجدانات القارئين .

ذكر النماذج أو استعراض النصوص

وسنستعرض نصًّا من كل فن من ذينك الفنين اللذين أجملنا ذكرهما فى الفصل السابق وهما فن الوعظ والإرشاد وشعر الغزل والحب الإلهى . وسأبدأ باستعراض نص من النصوص التى وصلت إلينا عن ابن الكيزانى فى فن الوعظ والإرشاد ثم أتبعه بنص من شعر الغزل والحب الإلهى .

النموذج الأول :

« نص من فن الوعظ والإرشاد » :

« قال أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن ثابت المشهور بابن الكيزانى » :

قف على الباب طالبا ودع الدمع ساكبا
وتوسل به إليه من الذنب تائبا
تلق من حسن فضله عنـد ذاك العجائبا
ثم خف منه أن يرا ك على الذنب راكبا
فهو يجزى على اليسير ويعطى الرغائبا
زينة العبد بالتقى فاجعل الصدق صاحبا

ما حول النص أو العوامل والمؤثرات التى لابست عملية الخلق أو التوليد لهذا النص الأدبى :

أعتقد أن العوامل والمؤثرات التى أدت إلى صدور هذا النص عن وجدان ابن الكيزانى كثيرة بعضها نستطيع تبينه والبعض الآخر نجهله، أقول نجهله لأننا

لم نكن نعيش فى عصره ، ولا نحن ممن خالطوه حتى نستطيع الوقوف على جميع الأسباب المباشرة وغير المباشرة لوجود ذلك النص .

على أننى لم أجد أحداً ذكر شيئاً يمكن اعتباره سبباً مباشراً أو غير مباشر لنظم هذه المقطوعة ، وأياًّ ما كان فإنى أستطيع إجمال العوامل والمؤثرات التى يحتمل أن تكون قد أدت إلى فيض قريحة الشاعر بهذه الصورة الفنية أو تلك المعانى الوجدانية التى أودعها ابن الكيزانى أبياته تلك فيما يلى :

أولا : كان الناس قد شغلتهم الدنيا أيام ابن الكيزانى عن الدين وذلك بسبب كثرة الحروب الطاحنة التى كانت تدور فى مصر والشام بين المسلمين بعضهم بعضاً من ناحية وبينهم وبين الصليبيين من ناحية أخرى لأن كثرة الحروب تسبب غلاء المعيشة وارتفاع أسعار الحاجيات ، الأمر الذى يجعل الإنسان يكثر من السعى فى تحصيل أسباب العيش .

ثانياً : كثرة الأوبئة الفتاكة ، والتى كانت تخترم الرجال وتعتبط الشباب فى صورة فظيعة مؤلمة ، على حين كانت الدولة الإسلامية فى مصر والشام أحوج ما تكون إلى الرجال للذب عن الإسلام وأهله ، الأمر الذى أدى إلى وجود حالة من الاضطراب النفسى والتزعزع العقيدى فى نفوس كثير من المسلمين وبخاصة من كانوا من قبل على غير دين الإسلام :

ثالثاً : تفشى المجون والاستهتار والتحلل الخلقى فى مختلف المدن والبلدان بمصر والشام ، ولا غرو فقد شربت الخمر وأتيت الغلمان وأكثروا من ارتكاب الحرمات . فلكل هذه الأسباب وغيرها ، أحس ابن الكيزانى فى أعماق نفسه بالمسئولية الدينية والواجب الخلقى ، وانفعلت بذلك عاطفته الإسلامية وأخذ ضميره يأمره بأن يعمل جاهداً على وعظ الناس وإرشادهم ودعوتهم إلى التوكل على الله والإخلاد إليه وأن يزهدهم فى الدنيا ولذاتها وما فيها من منافع قليلة زائلة . وقد استجاب بطبيعة الحال ابن الكيزانى إلى ضميره ففاضت قريحته بتلك المواعظ والإرشادات التى فى هاتيك الأبيات :

شرح النص أو تبيان المضامين :

قف على الباب طالبا ودع الدمع ساكبـا

فالشاعر فى البيت الأول من هذه المقطوعة ينصح للإنسان أن يترك مسألة البشر وأن يحفظ ماء وجهه من التردد على أبواب السلاطين والتذلل بين يدى الأمراء وأصحاب الجاه والثراء بغية الاستجداء وأن يتجه بكليته وبكل عواطفه وجماع قلبه إلى ربه عز وجل يستمطر رحمته ويستدر عطفه ويتضرع إليه أن يوسع عليه رزقه وأن يقيه نائبات الزمان وينقذه من طغيان الحدثان ، ثم إن الشاعر يربأ بكرامة الإنسان أن يذرف عبرة من عينيه بين يدى أحد من الخلق طالباً لعطفه أو التماس بعض النوال منه وأن يكون انسكاب دمعه لربه فقط فهو وحده الذى يستوجب من كل خلقه التذلل والخضوع وكأنى بابن الكيزانى قد تمثل حين قال بيته هذا ذينك البيتين :

لا تسألن بُنَىّ آدم حاجة وسَلِ الذى أبوابه لا تحجب
فالله يغضب إن تركت سؤاله وبُنَىُّ آدم حين يسأل يغضب

وفى البيت الثانى « وتوسل به إليه ... من الذنب تائبا » يحض ابن الكيزانى كل إنسان على التوبة من الذنوب وطلب الغفران من ارتكاب الآثام وأن يتوسل فى ذلك كله إلى الله بذاته هو سبحانه وتعالى لا بشىء سواه ، ومعنى هذا أن ابن الكيزانى لا يجيز التوسل إلى الله بأى من الخلائق مهما كانت قيمته أو منزلته فإن المخلوق لا يقدر على شىء لنفسه هو ، فما بالك بنفعه أو ضره للآخرين .

وكأنى بابن الكيزانى يتمثل فى هذا المعنى قول النبى صلى الله عليه وسلم : « واعلم أن الناس لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشىء لا يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك » .

وفى البيت الثالث « تلق من حسن فضله . . . عند ذاك العجائبا » يقول ابن الكيزانى تأكد أيها الإنسان بأنك إذا لجأت إلى ربك وانصرفت بقلبك عن كل ما عداه ولم ترج الخير من أحد سواه فإنك سوف تلقى من حسن فضله عند

ذاك العجائبا ، يعنى أن الخير كله سوف يأتيك ، وأن الشر كله سوف يجافيك ، وأنه سوف يتحقق لك من الأمانى والآمال ما كنت تظنه من قبل داخلا فى دائرة المحال .

وفى البيت الرابع « ثم خف أن يراك . . . على الذنب راكبا » . ينهى ابن الكيزانى عن ارتكاب الذنوب وفعل الآثام ويحذر العصاة والمذنبين من عذاب أليم ثم هو يبكت مجترح السيئات والذين هم يأتون المنكرات بأسلوب موغل فى السخرية مفعم بالتأنيب إذ يقول فى تهكم لاذع ولوم شديد . . . يا من يقترف الآثام ويأتى الموبقات فى السر أو الخفاء ظناً أنه لايعلم به أحد وأنه لن تراه عين إنسان. خف من الله العزيز الجبار الذى لا يغفل فى ليل أو فى نهار والذى لا تخفى عن علمه خافية ولا تغيب عن عينه ذرة فى الأرض ولا فى السماء ؛ بل إنه يبصر جميع الكائنات ويحيط بكل الموجودات ويعلم حقائق جميع الماديات والمعنويات ومصداق هذا كله قوله تعالى فى كتابه العزيز : « يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور » .

وفى البيت الخامس « فهو يجزى على اليسير . . . ويعطى الرغائبا » يبشر الشاعر العاملين من المؤمنين الصادقين أن لهم عند ربهم حسن المثوبة وخير الجزاء ، إذ أن الله سبحانه وتعالى يجزى بالكثير على فعل القليل وأنه يحقق لعباده المخلصين جميع المآرب وكل الآمال وإن بدت أمام ناظريهم صعبة التحقق بعيدة المنال .

وفى البيت السادس « زينة العبد بالتقى . . . فاجعل الصدق صاحبا » . يجعل ابن الكيزانى جمال المرء وزينة الإنسان منوطة بالتقى والورع والزهد فى الدنيا والإقبال على الآخرة والصدق فى العبادة والإخلاص فى الطاعة ، ولا عجب فإن الإنسان إذا ما ترك الدنيا واتجه إلى الله أضحى من المقربين إلى رب العالمين ، والقرب دون شك يضفى على العبد هالة من الجمال والجلال وكثيراً من الحسن المادى والرونق المعنوى وذلك بفضل ما يغمره به ربه فى حالة دنوه إليه من الأسرار والأنوار .

بيان ما فى النص من الخصائص البلاغية وبديع التصوير وروعة التعبير

لقد بدأ الشاعر هذه المقطوعة بأسلوب الأمر ، وهو أنسب الأساليب إلى الموضوع الذى أنشئت فيه المقطوعة ، إذ مقصود الشاعر من مقطوعته هذه هو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

على أنه ليس أمراً بمعناه الحقيقى ، وإنما هو وعظ ونصح وإرشاد جاء على صيغة الأمر ، لإشعار المخاطبين بأن الأمر جد خطير . وفى البيت الثانى يعود الشاعر إلى أسلوب الأمر الذى اصطنعه فى البيت الأول مع تضمينه إياه خصوصية بلاغية أخرى ، وأعنى بها ما يعرف فى علم المعانى بأسلوب القصر ، وهو يتمثل هنا فى تقديم الجار والمجرور على متعلقه ، وأعنى بالجار والمجرور هنا قوله من الذنب وبالمتعلق قوله تائباً . إذ أصل الكلام هكذا . . توسل به إليه تائباً من الذنب ، إذ من المقرر فى علم المعانى أن تقديم الجار والمجرور على متعلقه يفيد الحصر ثم إن كلا من البيت الأول والبيت الثانى يشتمل على خصوصية بلاغية ثالثة وأعنى بها أسلوب الإنشاء .

وفى البيت الثالث ينتقل الشاعر من الأسلوب الإنشائى إلى الأسلوب الخبرى وتلك خصوصية بلاغية قصد بها الشاعر تقرير المعنى وإخراجه مخرج الأمر المحقق .

وفى البيت الرابع يعود الشاعر إلى اصطناع أسلوب الإنشاء مبالغة منه فى التخويف والتحذير لأن الإنشاء يشتمل على معنى المفاجأة وفى المفاجأة ما فيها من التأثير على العواطف والوجدانات .

وفى البيت الخامس يستعمل الشاعر أسلوب الإخبار لأنه يناسب التقرير ويفيد بالتالى حصول المعنى وتحقيق المراد .

وفى البيت السادس يتابع الشاعر طريقة الإخبار لنفس الغرض وذات القصد الذى أسلفناه . وقد زخرت هذه المقطوعة أيضاً بصور البيان ومختلف وجوه تحسين الكلام ، أعنى أنها قد اشتملت على مجموعة من الخصائص الفنية والمزايا الأدبية المنوطة باللفظ والمضمون والتى يعنى ببعضها علم المعانى كأسلوب

الخبر والإنشاء والفصل والوصل والقصر والتقديم والتأخير ، ويعرف البعض الآخر منها بواسطة فنى البيان والبديع . فمن صور البديع ما اشتملت عليه المقطوعة من التجريد وهو أن يجرد الشاعر من نفسه شخصاً آخر يوجه إليه الخطاب وكالطباق الذى يتمثل فى الجمع بين المعانى المتقابلة . إما على وجه التوافق أو على سبيل التضاد . ومما يعد من صور البيان صراحة وفى غير ما لبس أو التواء « ثم خف منه أن يراك على الذنب راكبا » . فهو كما ترى قد أخرج فى هذا البيت الأمر المعنوى فى ثوب الأمر الحسى ذى التحقق الخارجى والذى يمكن أن يشاهد بالعيان .

إذ ادعى شاعرنا أن الذنب وهو أمر معنوى — يشبه الحيوان كالفرس وغيرها مما يتأتى أن يركبه الإنسان . وفى ذلك ما فيه من التخيل والتشخيص الذى يعده النقاد من أسمى صور البيان وأروع أساليب التعبير .

نوع التأثير المقصود من هذه المقطوعة على مشاعر المخاطبين

بناء على ما تقدم من تبيان العوامل والمؤثرات التى لابست عملية الخلق ، أو قل حالة التوليد لمعانى مقطوعة ابن الكيزانى المذكورة وما قدمناه كذلك من شرح معانيها ثم تبيان ما فيها من بديع التصوير وروعة التعبير ، بناء على ذلك كله أستطيع أن أقول إن ابن الكيزانى كان يهدف من مقطوعته تلك إلى إثارة العواطف الدينية وتقوية الإيمان فى نفوس المسلمين وبالتالى يجعلهم يقلعون عن ضروب اللهو والعبث ، ويمسكون عن المجون والاستهتار ، ثم يقبلون على الله بتأدية الفرائض والواجبات وفعل الخير واجتناب الشر .

النص الثانى :

مقطوعة من شعر الغزل والحب الإلهى :

اصرفوا عنى طبيبى ودعونى وحبيبى
عللوا قلبى بذكراه فقد زاد لهيبى
طاب هتكى فى هواه بين واش ورقيب

لا أبالى بفوات النفس ما دام نصيبى
ليس من لام وإن أطنب فيه بمصيب
جسدى راض بسقمى وجفونى بنحيبى

ما حول النص أو العوامل والمؤثرات التى أدت إلى فيض قريحة ابن الكيزانى بهذه الأبيات :

لم يذكر لنا أحد من المؤرخين أو المتصوفين الذين كتبوا عن ابن الكيزانى وترجموا له وأرخوه ، لم يذكر لنا أحد من أولئك ولا هؤلاء الظروف التى اقتضت نظم هذه المقطوعة ولا شيئاً من الملابسات التى اكتنفتها وقت أن جاشت بها نفس ابن الكيزانى وانفعلت بها عواطفه . ولكننا مع ذلك نستطيع أن نتخيل العوامل ونقدر الأسباب على وجه التخمين أو الافتراض ، فنقول كان المريدون والطلاب والسالكون قد أحسوا من شيخهم ما هو عليه من الوجد والهيمان فأخذوا يروحون عنه بعض ما به من شدة الشوق وحرقة الوجد بمختلف ضروب الترفيه وشتى عبارات المواساة ، فتأثرت من ذلك نفسه وانفعل حسه ونبض شعوره ففاضت عواطفه بتلك المعانى وهاتيك الصور التى أودعها أبيات هذه المقطوعة .

شرح معانى الأبيات

يقول ابن الكيزانى فى البيت الأول من هذه المقطوعة « اصرفوا عنى طبيبى . . . ودعونى وحبيبى » .

لا أريد أن تنصحونى أيها الأصدقاء ومعشر المريدين بالإقلاع عما أنا فيه من الحب والهيمان ، ولا أريد من ذوى الحصافة وسداد فى الرأى أن يصفوا لى الدواء : فإن لذتى فى دنفى وسعادتى فى اشتياقى إلى قرب الحبيب . ثم يقول لمن أسدى له النصح — فى صراحة — انصرف عنى أيها الطبيب المداوى ودعنى وحبيبى أعانى فى سبيله ما أعانى .

وفى البيت الثانى « عللوا قلبى بذكراه . . . فقد زاد لهيبى » يتحدث الشاعر عن تجربته التى مرت به فى حب ربه ويطلب من عاذليه أن يداووه بنفس مصدر

الداء . وذلك بأن يذكروا بين يديه أو يلقوا فى سمعه باسم حبيبه أو يذكروه له ببعض صفاته أو شىء من أحواله معه أو معاملته إياه – إن صح هذا التعبير – من الوصل والهجر أو الإقبال والإدبار . وكأنى بابن الكيزانى قد تأثر – فى قوله عللوا قلبى بذكراه – قول أبى نواس : « وداونى بالتى كانت هى الداء » .

وفى البيت الثالث « طاب هتكى فى هواه . . . بين واش ورقيب » يقول الشاعر إنه يستطيب تهتكه فى هوى حبيبه بين عاذليه وأعنى بهما الواشى والرقيب .

وفى هذا المعنى ما فيه من تصوير التجربة الروحية والانفعالات النفسية التى مر بها الشيخ فى سبيل حبه مولاه .

وفى البيت الرابع « لا أبالى بفوات النفس . . . ما دام نصيبى . . » يقول ابن الكيزانى : لا يهمنى أى شىء أفقده فى سبيل حبيبى وإن كان أثمن ما يملك وأعز شىء فى الحياة وأعنى بذلك النفس أو الروح .

فابن الكيزانى إذن يستهين بكل شىء فى سبيل ظفره من ربه بالرضا والقبول ، وهذا هو عين المراد من قوله « لا أبالى بفوات النفس . . . ما دام نصيبى » .

يعنى أنه ما دام الله سبحانه وتعالى يشمله برضوانه ويقف إلى جانبه فى الملمات وعند النازلات . فإنه ما دام حاله معه كذلك – لا يأسف ولا يندم على شىء فاته فى هذه الدار حتى ولو كان ذلك هو نفسه أو روحه .

وفى البيت الخامس « ليس من لام وإن أطنب ... فيه بمصيب » . يقول ابن الكيزانى : قد أخطأ اللائمون وجانبهم الصواب وحادوا عن الحق وانحرفوا عن الجادة حينما أكثروا من لومه على ما به من الوجد والهيام .

وفى البيت السادس « جسدى راض بسقمى . . . وجفونى بنحيبى » يقول شاعرنا : إنه بكل ما فيه من أعضاء جسده راض بكل ما أصابه من سقم أضنى جسده وما اعترى قلبه من شجن أذرف دمعه ذلك لأنه قد ترفع فى حبه عن كل ما فى هذه الدنيا من متع ولذات وأصبح بالتالى لا يشعر فى جسده وروحه بشىء من آلام الدنيا ومضار الحياة . فإنما يبدو لأهل الظاهر من ألم أو شجن ليس فى الحقيقة وواقع الأمر سوى سعادة روحية تغمر قلبه وتفعم نفسه وذلك بسبب ما يستشعره فى أعماق قلبه من رضا مولاه .

الخصائص البلاغية والصور التعبيرية التى اشتملت عليها هذه الأبيات

استخدم الشاعر فى البيت الأول – لتصوير حسه ووجدانه – أسلوب الإنشاء. وذلك فى كل من الصدر والعجز. إذ طلب فى صدر البيت من طلابه ومريديه أن يصرفوا عنه الطبيب المداوى، وفى العجز طلب منهم أن يدعوه وشأنه كى لا يكدروا عليه صفوه بلوم أو نصيحة. إذ يرى أن سعادة نفسه فى اختلائه بحبيبه.

وفى البيت الثانى يصطنع الشاعر أيضاً أسلوب الإنشاء. وهو هنا خصوصية بلاغية لاقتضاء المقام إياه. هذا بالنسبة للصدر أما العجز فقد جاء على أسلوب الإخبار وهو كذلك خصوصية اقتضاه المقام لأن حال المخاطبين يتطلب من الشاعر الشرح والتعليل وذكر العوامل والأسباب التى جعلته يطلب إليهم أن يعللوا قلبه بذكر حبيبه. والأسباب أو العوامل منوطة هنا بعواطف الشاعر وأحاسيسه وما انفعلت به وجداناته وما اعترى قلبه فى حبه ربه من لعج الهوى وألم الجوى وشدة الوجد ووفرة الهيام وفى البيت الثالث يستخدم الشاعر فى تصوير عواطفه الأسلوب الخبرى أيضاً ثم إن البيت الثالث يشتمل – فوق خصوصية الإخبار – على صورة بيانية رائعة: إذ عبر عن تبذله فى هوى مولاه بالتهتك.

والتهتك لفظ يراد منه – حقيقة إذا أطلق – المرأة التى تكشف عن محاسنها وتبدى للناس مفاتنها فلا تستر ما ينبغى ستره عن الأعين من أعضاء الجسد.

وفى البيت الرابع يعود الشاعر إلى اصطناع الإخبار وهو هنا خصوصية قد اقتضاها المقام بصورة أوضح من كل ما قد مضى إذ أن الشاعر فى هذا البيت يريد أن يكشف للناس عن عدم اكتراثه بالوصائب والكوارث والآلام التى تنزل به من جراء الحب والهيمان.

وهذا معنى لا يمكن أن يؤدى بأى من أساليب الإنشاء. لذلك رأينا الشاعر يصطنع فى هذا البيت الأسلوب الخبرى برغم أنه فى وسعه أن يستعمل مكانه أسلوب الإنشاء، إذ كان يستطيع أن يقول (وهل أبالى) بدلا من قوله لا أبالى، ولو أنه وضع

(هل) مكان (لا) لأصبحت الجملة جملة إنشائية ولكنه كما قلنا قد اختار الإخبار ، وما البلاغة فى أرقى مراتبها سوى حسن اختيار الأساليب .

وفى البيت الخامس يفضل الشاعر كذلك أيضاً الأسلوب الخبرى على أسلوب الإنشاء لأن الإخبار يفيد التحقق والتقرير وأما الإنشاء فإنه لا يشتمل على نسبة كلامية تحتمل الصدق والكذب والنفى والإثبات . لأن الإنشاء طلب والطلب يتعلق بأمور ليس لها صفة التحقق أو الحصول إذ أنه لو كان المطلوب حاصلا أو متحققاً لما جاز فى العقل أن يتناوله الكلام بصيغة الطلب وأسلوب الإنشاء ، ثم إن هذا البيت يشتمل كذلك على خصوصيات بلاغية أخرى منها التقديم والتأخير ومنها التوكيد . إذ اشتمل البيت على توكيدين الأول الجملة الاسمية والثانى زيادة الباء فى لفظ الخبر وهو كلمة بمصيب .

وفى البيت السادس والأخير يستخدم الشاعر فى تصوير عواطفه وإبراز أحاسيسه الاستعارة المكنية حسب اصطلاح النقاد الأقدمين أو التشخيص — حسب اصطلاح المحدثين .

وتتجلى الاستعارة المكنية أو قل التشخيص فى قوله : « جسدى راض بسقمى » وفى قوله : « وجفونى بنحيبى » فقد شبه الشاعر جسده بإنسان عاقل ثم حذف المشبه به وأبقى المشبه وهو الجسد ورمز إلى المشبه به بشىء من لوازمه وهو هنا كلمة راض . إذ أن الرضا لا يتأتى إلا من كائن عاقل أما الجسد فإنه فى ذاته غير عاقل . وحسه وشعوره بالأشياء إنما يحصل له بفضل النفس التى تحل فيه وكذلك يقال فى الجفون . أن الجفون فى ذاتها لا يتأتى وصفها بالرضا أو عدمه وإنما جاز للشاعر أن يقول إنها راضية بالبكاء والنحيب بعد أن تخيل أنها فرد من أفراد بنى الإنسان .

وجملة القول فى هذه المقطوعة أنها قد اشتملت فى كل بيت من أبياتها على خصوصيات بلاغية ومحسنات بدعية ومختلف صور البيان .

نوع التأثير المقصود
أو الغاية الفنية للشاعر من هذه المقطوعات الشاعرية

أعتقد أن الشاعر أراد بهذه المقطوعة أن يصقل نفوس المريدين ويهذبها بتقوية عاطفة الحب الإلهى ، وتنمية الوجدان الروحى وبالتالى يوطدها على تحمل عصف الوجد ولعج الحب والتمرس على تباريح الهوى .

الفصل الثالث

الخصائص الفنية لشعر ابن الكيزانى

بعد أن تناولت شعر ابن الكيزانى بالوصف الإجمالى والنقد التحليلى ، أنتقل إلى إجمال خصائصه الفنية ، ومميزاته الأدبية فأقول :

لقد تأملت كل ما وقع إلىّ من شعر ابن الكيزانى ومحصت جميع أبياته وكل قصائده ، فوجدته قد انفرد فى أكثر شعره وجل قصيده بالخصائص الفنية التالية :

أولا : سهولة اللفظ ، فإننا لم نجد فى شعره كلمة صعبة ولا لفظة غريبة ، بل كل ألفاظه سهلة وكلماته مألوفة الاستعمال .

ثانياً : وضوح القصد وظهور المراد ، فإن كل من يقرأ شعر ابن الكيزانى يدرك غرضه ويفهم قصده فى غير ما جهد أو عناء .

ثالثاً : فصاحة الكلمات ، فلم نجد فى أبيات ابن الكيزانى كلمة غريبة أو متنافرة الحروف ولا بعيدة المعنى ، إذ أن بعد المعنى والتنافر فى الحروف والغرابة هى التى تكسب اللفظ الوحشية وتفقده الفصاحة وبالتالى تصبح الكلمة رديئة .

رابعاً : غزارة المعنى ، وعمق المضمون ، مع الخلو من الغموض والسلامة من الإبهام .

خامساً : استقامة التراكيب واستواء الأساليب .

سادساً : الحرص على مراعاة مقتضى الحال ، وتوخى الأساليب التى تناسب المعانى .

سابعاً : الاستعارة والتشخيص والكلف بالتشبيهات والمجازات .

ثامناً : اصطناع المحسنات كالجناس والتورية وحسن التعليل وكالطباق والتجريد .

تاسعاً : كثرة السرقات للمعانى ، فإن ابن الكيزانى كان يكثر من نظم القريض فيما يستحسنه من المعانى التى طرقها من سبقه من الشعراء سواء أكانوا متصوفين أم من أصحاب التشبيب والغزل .

هذا من حيث مساوقة شعر ابن الكيزانى لقواعد وقوانين نقد الأدب العربى القديم . أما بالنسبة لمقاييس النقد الحديث فإننا نستطيع أن نطبق على شعر ابن الكيزانى من أصول النقد الحديث المسائل التالية :

أولا : الصدق العاطفى ، فإن كل من يقرأ شعر ابن الكيزانى يجده يفيض بحيوية العاطفة وومض الشعور وعمق الوجدان .

ثانياً : غزارة المضمون مع البعد عن التعقيد والسلامة من الالتواء والخلو من الغموض والإبهام . وشعر ابن الكيزانى فى جملته وتفصيله مساوق لهذا الأصل تمام المساوقة .

ثالثاً : اتخاذ الشاعر لنفسه مبدأً فى الحياة يلتزمه فى جل شعره أعنى أنه لا يقف عند الجزئيات والفرديات بل ينبغى أن يتجه فى شعره إلى الكليات . ومن يقرأ شعر ابن الكيزانى يجده كله منحصراً فى اتجاهين عامين هما الوعظ والإرشاد والحب الإلهى . فما من قصيدة أو مقطوعة أو بيت عثرت عليه — من شعر ابن الكيزانى إلا وهو يشتمل على معنى من معانى الوعظ والإرشاد أو يصور حالة من حالات الحب الإلهى .

رابعاً : عمق التجربة والقدرة على سبر النفس الإنسانية ، وابن الكيزانى يتمثل — فى صدق — هذا الأصل من أصول النقد الحديث ، ومن يقرأ أشعاره فى الحب والغزل الإلهى يلمس فى وضوح مكابدة الشاعر وعمق تجربته فى حين أن أشعاره ذات الصبغة الوعظية تكشف عن قدرته على سبر أعماق النفس الإنسانية .

خامساً : طاقة الشاعر الإيحائية وقدرته على نقل أحاسيسه وانفعالاته إلى وجدانات الآخرين . وابن الكيزانى فى شعره موحٍ مشع يحرك بما أودعه فى أبياته من العواطف المتأججة مشاعر السامعين والقارئين فلا أظن أن أحداً يقرأ أو يسمع قوله :

اصرفــوا عنى طبيبى ودعــونى وحبيبى
عـــللوا قلـــبى بذكراه فقـــد زاد لهيـــبى
طـــاب هتـــكى فى هواه بين واش ورقيب

لا أظن أن أحداً يقرأ هذه الأبيات وأمثالها حتى تهيم نفسه وينبض قلبه وينفعل منه الوجدان بشتى معانى الحب ومختلف حالات الغرام .

بسم الله الرحمن الرحيم

ديوان ابن الكيزاني

مقدمة الديوان

الحمد لله خلق الإنسان ، علمه البيان ، واختصه دون الخلائق كلها بدقة الشعور ورقة الوجدان ، والصلاة والسلام على رسوله محمد خير الأنام . وبعد :

فقد عنيت بدراسة الأدب الصوفى فى مصر إبان القرن السابع الهجرى ، وذلك بغية الحصول على درجة الدكتوراه من جامعة القاهرة ، وقد وفقنى الله إلى تقديم رسالة فى ذلك الموضوع تحمل نفس العنوان والتى أقر مناقشتها بالفعل مجلس كلية الآداب .

ولما كان الدرس العلمى الصحيح والبحث المنهجى القويم يقتضى وصل اللاحق بالسابق حتى تتضح معالم التطور الفنى ومظاهر الرقى الأدبى فى عصر ، دون عصر ؛ وذلك استكمالا للبحث العلمى وتطبيقاً للمنهج الأدبى ، فلهذا أخذت نفسى فى رسالة الدكتوراه — السالفة الذكر — بتتبع خطوات الشعر الصوفى فى مصر منذ أخريات القرن الأول الهجرى حتى نهاية القرن السادس .

وفى أثناء ذلك البحث ، وإبان تلك الدراسة ، عرفت شخصية صوفية ، قد تميزت فى مصر بخصائص ومميزات فى الفكر والأدب وفى إنشاد الشعر ونظم القصيدة ، وأعنى بذلك أبا عبد الله محمد بن إبراهيم بن ثابت الشهير بابن الكيزانى .

ولما كان موضوع دراسة الدكتوراه محدداً بزمان معين — وهو القرن السابع الهجرى — فقد رأيت أن العناية بابن الكيزانى فى ذلك البحث تخرجه عن إطاره . إذ أن ابن الكيزانى عاش ومات فى القرن السادس لذلك فقد عقدت العزم على دراسته دراسة منفردة إثر فراغى من تقديم رسالة الدكتوراه .

وهأنذا أقوم — بعون الله وتوفيقه — فى القسم الثانى من هذا الكتاب بجمع شعر ابن الكيزانى وتحقيقه وترتيبه .

ولما كان ديوانه الذى أكثر المؤرخون من ذكره وإطرائه غير موجود بين أيدينا الآن ، فقد بذلت قصارى الجهد فى البحث والتنقيب فى مختلف الكتب وشتى المصنفات والتراجم والطبقات عن قصائد وأشعار ابن الكيزانى .

وبعد أن جمعت كل ما عثرت عليه من قصائده وأشعاره أخذت نفسى فى التحقق والتثبت من صحة نسب كل مقطوعة أو قصيدة إليه .

هذا على أن المصادر التى استقيت منها قصائد وأشعار ابن الكيزانى كثيرة جمة ذكرتها جميعاً فى ثبت خاص جعلته آخر الكتاب أختص منها بالذكر هنا ، ما هو أوثق رواية وأصدق خبراً وأصح حديثاً وذلك كخريدة القصر وجريدة العصر ، للعماد الأصفهانى المتوفى سنة ٥٩٦ هـ ، ومرآة الزمان لسبط بن الجوزى المتوفى سنة ٦٥٦ هـ ، وكتاب وفيات الأعيان لابن خلكان المتوفى سنة ٦٨١ هـ ، والوافى بالوفيات للصلاح الصفدى المتوفى سنة ٧٦٤ هـ ، وكتاب طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين السبكى المتوفى سنة ٧٧١ هـ .

* * *

هذا وقد التزمت فى تحقيق ألفاظ شعر ابن الكيزانى وكلمات قصائده المنهج الفنى والأدبى وأسلوب التحقيق العلمى اللغوى .

* * *

والله أسأل أن ينفع بهذا الجهد الأدبى والعمل العلمى طلاب العلم وعشاق الأدب .

المؤلف

على صافى حسين

قافية الهمزة

لم نجد له فى هذه القافية سوى هذين البيتين :

يا من يَتِيهُ على الزمان بحسنِه　　　اعطِفْ على الصبِّ المشوق التائهِ
أضْحَى يخاف على احتراق فؤادهِ　　　أسَفاً لأنك منه فى سودائهِ [1]

---

(١) ذكر هذين البيتين كل من العماد الأصفهانى فى خريدته (خريدة القصر وجريدة العصر طبع القاهرة سنة ١٩٥٢ ج ٢ ص ٣٢) فقال :

« ونقلت له من مجموع آخر هذه المقطعات الموشحات ورأيت إثبات مابه من الأبيات » واستهلها بهذين البيتين .

والصلاح الصفدى فى وافيه (الوافى بالوفيات – طبع إستانبول سنة ١٩٣١ ج ١ ص ٣٤٧) ولم يزد على قوله (وقال) ثم ذكر البيتين .

وسبط ابن الجوزى فى كتابه مرآة الزمان (مرآة الزمان – طبع زنكنفراف شيكاغو سنة ١٩٠٧ ج ٨ ص ١٥٧) فقال : عطفاً على ماقدمه من أخباره وأشعاره (وقال أيضاً) فأثبت البيتين .

هذا ولم أجد خلافاً بين هذه الروايات المتعددة فى أى لفظة أو كلمة من كلمات هذين البيتين .

قافية الباء

قال ابن الكيزانى رحمه الله :

قِف على الباب طالبا ودع الدمع ساكبا[1]
وتوسلْ به إليــه من الذنب تائبا
تلق من حسن فضله عنـــد ذاك العجائبا
خف منه أن يرا ك على الذنبِ راكبا
فهو يُجزِى على اليسير ويعطى الرغائبـــا
زينـــة العبدِ بالتقى فاجعل الصدق صاحبا

وقال أيضاً عفى الله عنه فى الباء المضمومة :

والله لولا أنَّ ذكرَك مؤْنِسى ما كان عيشى بالحياة يطيبُ[2]
ولئن بكتْ عينى عليك صبابةً فلكل جارحةٍ عليك نحيبُ
أتظنُّ أن البعد حلَّ مودتى إن بَانَ شَخْصك فالخيال قريبُ
كيف السلوُّ وقد تمكَّن فى الحشا وَجدٌ على ما فى الفؤاد رقيبُ
وإليك قد رَحَلَ الهوى بحُشَاشتى والسُّقمُ مُشْتَمِلٌ وأنتَ طبيبُ

---

(١) لم يذكر هذه المقطوعة أى من « الأصفهانى » و « وسيط ابن الجوزى » و « الصفدى » و « ابن خلكان » وإنما ذكرها فقط الشيخ شمس الدين محمد بن الزيات فى كتابه الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة طبع القاهرة (سنة ١٩٠٧ ص ٣٠٣) فقال : (ومن شعره) ثم ذكر الأبيات هذه .

(٢) ذكر هذه المقطوعة كل من العماد الأصفهانى (العماد الأصفهانى – خريدة القصر ج ٢ ص ٣٣) .

والصلاح الصفدى فى وافيه (خليل بن أيبك الصفدى – الوفى بالوفيات ج ١ ص ٣٤٧) .

ولم أجد خلافاً بين الروايتين فى شىء من هذه الأبيات .

وقال أيضاً :

حاولتُ وصلكمُ فعزَّ المطلبُ   وذهبت أسألكم فضاقَ المَذهَبُ[١]
لا تَعتبوا أنى تشَكَّيْتُ الهوَى   رُدُّوا علىَّ تصبُّرِى ثم اعتِبوا
أثبَتُّمُ غدرًا وما أ نا غــادرٌ   وجعلتمُ ذنباً وما أنا مُذنِبُ
إنى لأعجب من تحمُّلِىَ الهوى   وبقاءُ جسمى بعد ذلك أعجَبُ
لا بدَّ منكم فاهجروا أو وَاصلوا   ما مثلكم فى الحبِّ من يُتَجَنَّب

وقال أبو عبد الله محمد بن إبراهيم رحمه الله فى الباء المكسورة :

أصرِفوا عنِّى طَبِيبى   وَدَعُــونى وَحَبيبى[٢]
عَلِّلوا قلبى بذكراهُ   فقد زادَ لهيبى
طابَ هَتكى فى هواهُ   بَينَ وَاشٍ ورقيبِ

---

(١) ذكر العماد الأصفهانى هذه المقطوعة ضمن مانقله من مجموع آخر لابن الكيزانى غير ديوانه المعروف ، ولم أجد أحداً سواه رواها أو أنشدها .

(العماد الأصفهانى – خريدة القصر – جـ ٢ ص ٣٣) .

وكون اللائم مطنبا هوفى الحقيقة أمر مشكوك فيه ، إذ أنه لا يلزم أن الدذال إذا لاموا أن يطنبوا فى اللوم و إن كان اللوم يعد لثقله على نفس المحب طويلا مؤلما و إن قلت عباراته وندرت كلماته ومن ثم يصح أن نفهم كلام ابن الكيزانى هنا على وجه آخر غير الذى قدمناه وهو أنه – أعنى ابن الكيزانى – يعد العبارة الواحدة – أو الإشارة الخاطفة والإماءة من القلق والاضطراب والريبة وسوء الظن ، وتلك أمور كلها تقتضى التردد والشك لا القطع والتأكيد .

(٢) ذكر هذه المقطوعة كل من العماد الأصفهانى فى خريدته – والصفدى فى وافيه – وابن تغرى بردى فى النجوم الزاهرة – وسبط بن الجوزى فى المرآة . وذلك مع اختلاف فى رواية عدد الأبيات ، فقد اتفق الصفدى والأصفهانى فى رواية هذه المقطوعة من حيث الألفاظ وعدد الأبيات وهى ستة . كما هومذكور فى طب الديوان .

أما ابن تغرى بردى فقد اقتصر على رواية الأبيات الثلاثة الأول .

وأما صاحب المرآة فإنه قد أسقط منها البيت الرابع – أى إنه ذكر من المقطوعة خمسة أبيات فقط وقد أوردها بهذا الإسناد : قال :

أنشدنى منه (يعنى ديوان ابن الكيزانى) الفضل مرهف بن أسامه بن منقذ بمصر فى سنة سبع وستمائة فقال (الأبيات) .

لا أُبالى بفَوَات النَّفْسِ مادامَ نصيبى

ليسَ مَن لامَ وإن[١] أطنبَ فيه بمصيبِ

جَسَدى راضٍ بسُقمى وَجُفُونى بنَحيبى

وقال فى الباء المكسورة أيضاً :

يا حادىَ العِيسِ اصطَبِر ساعةً فمهجتى سارت مع الرَّكبِ[٢]

لا تَحدُ بالتفريق عن عاجلٍ رِفقاً بقلبِ الهائمِ الصَّبِّ

لو كنتَ تدرى ما احتكامُ الهوى وجَورهُ من تَلَفِ القَلبِ

رثيتَ لى مما يُجِنُّ الحَشا من شدة الهجَران والكَربِ

وقال أيضاً رحمه الله :

يا من يصارِمُنى بلا سببٍ مَهْلا فإنَّ هواك بَرَّح بى[٣]

انظر إلى رمَقٍ تجيلُ به أيدى الهوى أنفاسَ مكتَئِبِ

واسمَح بحسن العَطفِ منك لمن غَادَرتَهُ وَقْفًا على العَطِبِ

قد فُلَّ صبرى فيك منهزماً لا ينثنى وهواكَ فى الطَّلَبِ

---

(١) هى كذلك فى رواية كل من الصفدى والأصفهانى – أما سبط بن الجوزى فقد أوردها بعبارة أخرى إذ قال :

« ليس من لام وقد أطنب فيه بمصيب »

والصحيح ما أثبتناه لأمرين اثنين :

الأول : كون العماد الأصفهانى أوثق من غيره لأنه عاصر ابن الكيزانى و إن لم يقدر له لقياه .

والثانى : كون التعبير (بأن) يفيد الشك – أما (قد) فإنها إذا دخلت على الماضى أفادت التحقيق – والشك هنا أولى لأنه يناسب نفسية المحب لما يعدوها اتجاه العذال واللائمين .

(٢) ذكر هذه القطعة العماد الأصفهانى فيما ذكره نقلا عما أسماه هوبالمجموع الآخر .

(العماد الأصفهانى – خريدة القصر – طبع القاهرة سنة ١٩٥٢ جـ ٢ ص ٣٣) ولم يروها أحد سواه ممن كتبوا عن ابن الكيزانى .

(٣) لم يذكر هذه المقطوعة أحد سوى العماد الأصفهانى وقد أثبتها فى خريدته ضمن القصائد والمقطوعات التى نقلها من المجموع الآخر الذى قال إنه وقع فى يده وهو على ماسبق أن ذكرناه غير ديوان ابن الكيزانى المعروف (المرجع السابق) .

قافية الحاء

لم نجد لابن الكيزانى فى التاء والثاء والجيم شيئاً على الإطلاق .

قال أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن ثابت الشهير بابن الكيزانى رحمه الله فى حرف « الحاء » :

إذا سمعْتَ كثير المدح عن رجلٍ ... فانظر بـأَىِّ لسانٍ ظلَّ ممدوحَا[١]

فإن رَأى ذاك أهلُ الفضل فـَارضَ لهم ... ما قيل فيه وخُذ بـالقول تصحيحا

أَوْلا فما مَدحُ أهلِ الجهل رافِعُهُ ... وربما كان ذاك المدح مجروحَا[٢]

---

(١) ذكر العماد الأصفهانى هذه المقطوعة فى خريدته وقد رواها بهذا الإسناد قال :

أنشدنى الفقيه أبو الفتح نصر الغزارى الإسكندرى ببغداد فى ذى الحجة سنة ستين قال :

أنشدنى ابن الكيزانى وقد دخلت إليه زائراً بمصر فى شوال سنة خمس وخمسين لنفسه :

(العماد الأصفهانى — خريدة القصر وجريدة العصر — طبع القاهرة سنة ١٩٥٢ جـ ٢ ص ١٩) .

(٢) هى هكذا فى المحمدون — وفى الخريدة بلفظ (مجروحاً) بصيغة اسم المفعول من جرح يجرح . وقد رجحنا صيغة المصدر وأعنى بها كلمة (تجريح) وهى من فعل (جرح) تضعيف (جرح) لأن المدح إذا كان فى غير موضعه كان طعناً وتجريحاً أو ذماً وهجاء وليس من قبيل المدح والإطراء أو التمجيد والثناء — أما ذكرها بصيغة اسم المفعول فإن المنعوت بالجرح يكون هو نفس المدح — أو بعبارة أخرى أقول :

الكلام الذى قيل فى مدح ذلك الإنسان سواء كان نظماً أم نثراً . ومن يتأمل الأبيات المذكورة وينعم النظر فى سياق المعنى — أو يتدبر كلمات الأبيات فإنه يوافقنى على القول بأن قصد ابن الكيزانى هو وصف الكلام — الذى يتضمن المدح البعيد عن الصدق والذى يكون واضح الكذب بين الافتراء — بأنه تجريح للممدوح لما ينطوى عليه فى باطنه من الذم والهجاء ، وليس هو — أعنى قصد ابن الكيزانى — وصف المدح ذاته بأنه مجروح إذ أن الكلام لا يتصور أن يقع عليه الجرح سواء أكان ذما أو مدحاً وإنما هو فى الحقيقة وواقع الأمر يوقع على الأشخاص المعنيين به صفة التجريح .

وقال أيضاً :

سواءٌ أن تلوما أو تريحا رأيتُ القلب لا يَهوَى نصيحَا[١]
أما لو ذُقتُمَا صَرفَ الليالى إذَنْ لعذَرتُما القلبَ القَرِيحا
وكانت فُرقةُ الأَحباب ظَنًّا فأَصبح بَينَهُم خبَرًا صريحَا
ولو لم ينزلوا سَلمات[٢] نجْدٍ لما استنشقْتُ للسَّلمَاتِ ريحا
ولا أهديتُ للأَسماع يوماً غناءً من حمائمها فَصِيحَا
وهأَنا قد سمحتُ بدمعِ عينى وكنتُ بدمعها أبدًا شَحيحَا
وأمكنتُ المحبَّة مِن قِيادى وصنتُ مع النَّأْى[٣] وُدًّا صحيحَا
وقد سكن الجوى قلباً صحيحاً وقد تَرَكَ الهوى صَدرًا قريحَا[٤]

---

(١) انفرد بذكر هذه القصيدة العماد الأصفهانى (العماد الأصفهانى – خريدة القصر – طبعة القاهرة سنة ١٩٥٢ جـ ٢ ص ٢٠) .

(٢) السلمات – فى القاموس – جمع سلمة بوزن فعلة اسم الشجرة يكثر نبتها فى بلاد نجد وهى فى اللغة أيضاً اسم لنوع من الحجارة . ومقصود الشاعر هنا : الأمكنة والبقاع التى تتوافر فيها تلك الحجارة أو نبت بها هاتيك الأشجار .

(٣) النأى البعد . من نأى ينأى – النأى فى اللغة مصدر نأى ينأى ومعناه البعد والمقصود منه هنا النوى بمعنى البين والفراق .

(٤) هى فى الخريدة بلفظ (قبيحاً) وهو معنى لايناسب المقام لذلك – أثبتنا اللفظة التى تساوق المعنى وتناسب المقام وهى (قريحاً) بمعنى (مجروحاً) ولعل ذلك وقع سهوا من قلم الشيخ أو هو تصحيف النساخ .

قافية الدال

وقال الشيخ أبو عبد الله رحمه الله فى قافية الدال :

ما سمح الدهر لى بشىء إلا تقاضاه فاسترَدَّا[١]
كنت ضَنيناً بودِّ قومٍ أرعى لهم ذِمَّة وعهـدا
فاختلَستْهُمْ يَدُ الليالى وعَوَّضتْ بالوصال صَدَّا

وقال أيضاً :

ليلتىْ رامـةَ عُودَا واجعلا العهد جَديدا[٢]
قَرِّبَا ما كان صَفْوًا لهوًى منـا بَعِيدا
وإذا ما بَخِل الدهرُ بإسعـافى فجودا
أذكَرَتْنى سَمَرات الـ ـحىِّ إذا مِسْنَ قدودا
مثلما أذكرنى الربْـ ـرَبُ أحداقاً وجيدا

ومنها قوله :

ولقد أنصفْنَ حِيناً ثم أعقَبْنَ صدودا[٣]
وغدا صَرفُ الليالى مُبدِياً فينَا مُعِيدا
فلكم أمرَح بالدمـ ـعِ جفوناً وخدُودَا

---

(١) لم يذكر هذه الأبيات سوى العماد الأصفهانى فى خريدته .
(العماد الأصفهانى — خريدة القصر — طبع القاهرة) سنة ١٩٥٢ جـ ٢ ص ٢١ .
(٢) انفرد بذكر هذه القصيدة أيضاً صاحب الخريدة — المرجع السابق ص ٢٢ و ٢٣ .
(٣) بعد أن ذكر العماد الخمسة الأبيات الأول وقال : (ومنها) ثم أورد الأبيات السبعة الأخيرة ومعنى هذا أن القصيدة طويلة اقتصر منها العماد على ذكر هذه الأبيات ومجموعها اثنا عشر بيتاً فقط .

ولقينا بعد لينِ العـ ـيشةِ الصَّعبَ الشديدا
أيها الدهر أقلني جُزتَ فى الجَوْر الحدودا
قد أرَى الليل طويلاً فِيكَ والأَيامَ سُودا
فأَنا الدهرَ طريدٌ أبتَغِى صَبرًا طريدا

وقال الشيخ أيضاً فى الدال المكسورة :

قد قتلتِ فاتئدى لا تُعَــذِّبى كَبِدى[١]
وانظرى جَوًى وهوًى سُلِّطا على جسدى
لا تهتدى بغَدٍ فالمماتُ بعد غدِ
كلمــا طلبتُ رِضاً بالوصال لم أجدِ
ما أرَى صدودكُمُ ينتهى إلى أمــدِ
إننى بذلتُ دَمِى ما عليكِ من قَوَدِ
إن بخلتِ أن تصلى فاسمحى بأن تعدى
مُذْ عَلِقْتُ حُبَّكُمُ لم أمِل إلى أحَدِ
ما جرى صدودُكمُ قبل ذاك فى خَلَدِى
فارحمى قتيلَ ضناً فى هواكِ واقتصدى

وقال أيضاً :

قل لمن وكَّلَنى بالسُّهُدِ إنَّ مَن أسهرتَه لم يَرقُدِ[٢]

---

(١) وقد انفرد بهذه القصيدة أيضاً العماد الأصفهانى :
(العماد الأصفهانى – خريدة القصر – طبع القاهرة سنة١٩٥٢ جـ ٢ ص ٢١) وهى من القصائد التى نقلها عن النسخة التى أعطاها له السلطان صلاح الدين .
(٢) انفرد بذكر هذه الأبيات العماد الأصفهانى فى خريدته .
(العماد الأصفهانى – خريدة القصر – طبع القاهرة سنة ١٩٥٢ – جـ ٢ ص ٢١) .

بنتَ والشوقُ مقيمٌ فى ٱلحشَا ... يتمادَى حَرُّهُ فى الكبدِ
أنا فى أَسرِكَ فانظر وٱحتكم ... ما على هجرِكَ لى من جَلَدِ
لا يَغرنَّكِ يا ملكتى ... رَمَقٌ يبقى ليومٍ أو غَدِ

وقال أيضاً :

تلذُّ لى فى هَوَى ليلى معاتبتى ... لأَنَّ فى ذكرها بَرْدًا على كَبدى[1]
وأَشتهى سَقَمى أَن لا يفارقنى ... لأَنها أَودعَتهُ باطنَ الجَسد
وليس فى النوم لى ماعشتُ من أَرَبٍ ... لأَنها أَوقَفتْ جَفنى على السُّهُدِ
ولو تمادت على ٱلهِجران راضيةً ... بالهجر لم أَشكُ ما أَلقى إلى أَحدِ
فإن أَمت فى هواها فَهىَ مالكتى ... وما لعبدٍ على مولاه من قَوَدِ
اللومُ أَشبه بى منها وإن ظلمت ... أنا الذى سقتُ حتفى فى الهوى بيدى

وقال أيضاً :

لو أنَّ عندكَ بعضَ ما عندى ... لرثيتَ لى من شدَّةِ الوجْد[2]
كلَّفتنى ما لو يُكلَّفُهُ ... صَلدٌ لذابَ له صَفَا الصَّلْدِ
ياليت لما رُمتَ تُتْلفِنُى ... فى الحبِّ كان بماسوى الصَّدِّ
لو كان هذا من سواكَ على ... ضَعفى لكنتُ إليك أَسْتَعدى

(١) انفرد أيضاً بذكر هذه المقطوعة العماد الأصفهانى فى خريدته (نفس المرجع السابق ص ٢١ و ٢٢) .

(٢) انفرد برواية هذه المقطوعة العماد الأصفهانى .

(العماد الأصفهانى — خريدة القصر — طبع القاهرة سنة ١٩٥٢ ج ٢ ص ٢٢) .

وهى إحدى المقطوعات التى نقلها العماد بنفسه عن النسخة التى أخذها من السلطان صلاح الدين الأيوبى — والتى كان قد حصل عليها من ابن الكيزانى نفسه حين لقيه فى مصر يوم أن ذهب على رأس فرقة من جيش السلطان نور الدين زنكى لمحاربة الصليبيين الذين كانوا قد هاجموا مصر واحتلوا الإسكندرية آنذاك .

قافية الراء

قال ابن الكيزانى رحمه الله وعفا عنه فى حرف الراء :

يا من بدا هجرانُهُ ... ما أنتَ أوَّلُ من هَجَر[١]
هىَ سنَّةٌ مألوفـةٌ ... فيمن تَقَدَّمَ أو غَبَر
داومْ على ما أنت فيـ ... ـهِ فإنما الدنيا عِـبَرْ
عَوَّدتُ نفسى الصبرَ والأَجـ ... ـرُ الجزيلُ لمن صَبَرْ

وقال أيضاً فى الراء المفتوحة :

أَتُرَى أَضمرتْ قديماً هَجْرا ... أم وَفَى الدهر بالتفرُّق نَذْرَا[٢]
نَظَرَتْ نظرة المشوقِ وللبَـ ... ـين بقلبى جَوًى تُشِبُّ الجمْرَا
لا وتلك الجنون والبرقع السا ... تر عن مُقلتى الخدودَ الحمرَا
ما توسَّمتَ قبل زَمِّ المطايا ... أَن أرى هَودجاً تكنَّفَ بدرا
أَزْمَعُوا رحلةً وقد نشروا الليـ ... ـل عليهم من جانبيه ستَرَا
واستقلُّوا وللمطايا اشتياقٌ ... مستمرٌّ إذ حَثَّها السَّيرُ قَسرَا
عاطفات الأَعناقِ من حَذَر التفر ... يق نحو الديار يَنْظُرنَ شَذْرَا
عزَّ لى أَن أرى المزارَ بعيدًا ... والديارَ التى توسمتُ قَفرَا
والعهودَ التى عهدتُ إليهم ... بُدِّلَت منهمُ مَلالاً وغَدْرَا

---

(١) ذكر العماد الأصفهانى هذه المقطوعة عن خريدته نقلا عن نسخة صلاح الدين الأيوبى المذكورة (العماد الأصفهانى – خريدة القصر – طبع القاهرة سنة ١٩٥٢ ج ٢ ص ٢٣) .

(٢) انفرد بذكرها أيضاً الأصفهانى (المرجع السابق ص ٢٤) .

وله أيضاً فى الراء المفتوحة مع التشديد المتصلة بهاء الضمير المتصل هذه المقطوعة :

أسعَدُ الناس من يكاتمُ سرَّه ويرى بَذْلَهُ عليه مَعَرَّهْ(١)
إنما يُعرَفُ اللبيبُ إذا ما حَفِظَ السرَّ عن أخيه فسَرَّهْ
إن يجد مَرَّةً حلاوة شكوا هُ سيلقى نَدامَةً ألف مَرَّه

وله فى هذه القافية أيضاً :

إن كنتَ لا بدَّ المخالطَ للورى فَاصبِر فإن من الحجَا أن تصبرَا(٢)
وإذا لقُوكَ بمنكرٍ من فعلهم فتلق بالمعروف ذاك المنكرَا
كالأرض ملقىً فوقها أقذارُها أبدًا وتُنْبِتُ ما يروقُ المنظرَا

وقال رحمه الله فى الراء المضمومة :

شَريفُنَا يمضى ومَشرُوفُنَا وإنما يُفتَقَدُ الخيِّرُ(٣)
كالجوِّ لا يوجد(٤) إظلامه إلا إذا ما عُدِمَ النَّيِّرُ

---

(١) روى هذه المقطوعة كل من صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى (انظر الوافى بالوفيات طبع استانبول سنة ١٩٣١ – جـ ١ ص ٣٤٧) .
والعماد الدين الأصفهانى – (خريدة القصر وجريدة العصر – لعماد الأصفهانى – طبع القاهرة جـ ٢ ص ٢٤) .
ولم أجد أى خلاف بين الروايتين فى أى لفظ من ألفاظ هذه المقطوعة – كما أننى لم أجد فى كلماتها أى لبس أو غموض .

(٢) انفرد برواية هذه المقطوعة تاج الدين عبد الوهاب السبكى فى كتابه المعروف (طبقات الشافعية الكبرى) طبع القاهرة جـ ٤ ص ٦٥ .

(٣) روى هذين البيتين العماد الأصفهانى فى خريدته – والصلاح الصفدى فى وافيه .

(٤) هى هكذا فى رواية العماد – أما الصفدى فقد أوردها هكذا :

كالجو لا يعدم لإظلامه وإلا إذا ما عـــدم النير

والصحيح هوما رواه العماد إذ لايستقيم المعنى مع رواية الصفدى بل يفسد ويضطرب لأن انعدام الإظلام لا يتأتى مع انعدام النير . لأن المقصود هنا أن الخيرين إنما يعرفون ويفتقدون إذا ماوجد الشريرون فأنت إذا صحبت اثنين من البشر أحدهما خير والآخر شرير فإنك إنما تعرف أحدهما بمعرفتك لحقيقة=

وله فى الراء المكسورة هذه القصيدة :

إذا نفحتْ رياحُ الغورِ يوماً ... فإنالدمع يُنجِدُنى ويغْرِى[1]
تُذكِّرُنى الذى قد غابَ عنى ... فيلقانى وألقاه بذكر
نأى عنى وقلبى مثل برق ... وأجفانى سحابٌ ذاتُ قطرِ
ويالهَفى عليه ثم لهفى ... نأى بنواهُ يوم البَين صبرى
أبيت معلّلاً روحِى بروحِ الـ ... نسيم من أرضه أيانَ يَسْرِى
ولا والله ما ذاقت جفونى ... مناماً لا ولا أخْلِيتُ ذكرِى
ووا أسفى على أن ذبتُ شوقاً ... وأحْسِبهُ بذلك ليس يدرِى

وله أيضاً :

أصبحتُ مما بىَ لا أدرى ... ماذا الذى أصنَعُ فى أمرِى[2]
إن بحتُ لا آمَنُ من لائمٍ ... والصبرُ قد ضاق به صدرى
ولقد تشفَّعْتُ إليه بهِ ... ولا يَرى شيئاً سوى الغَدْر

=الآخر . إذا أن معرفة الشر تبصر الإنسان بالخير ومعرفة الخير تبصر أيضاً بالشر . وهذا مصداق قولالشاعر العربى :

* وبضدها تتميز الأشياء *

فمقصود ابن الكيزانى إذن من قوله (كالجو لا يوجد إظلامه . إلا إذا ماعدم النير) هو أن إظلام الكون لايحدث ولا يكون إلا بفقدان النور ، وهومثل حسى ضربه لتصوير الأمر المعنوى الذى قصد إليه فى البيت الأول .

أما رواية الصفدى فإنه يترتب عليها أن ينعدم ظلام الجو بانعدام النور وهذا أمر ظاهر البطلان — لأن انعدام النور يولد الظلمة والذى ينعدم بسببه الظلام هووجود النور وليس انعدامه .

(١) انفرد بذكرها ابن سعيد فى كتابه المغرب فى حلى المغرب (المغرب فى حلى المغرب طبع القاهرة سنة ١٩٥٣ جـ ٢ القسم الخاص بشعراء مصر) .

وقد قال فى روايته لها مانصه :

« وذاكرت فيه أحد الأدباء بمصر وأعلمته أنى وقفت على ديوانه فلم أر فيه ما يصلح للاختيارفأنشدنى له أبياتاً لم أقف عليها ولا على مايقاربها فى ديوانه المذكور إلا أن تكون نسخة أخرى » .

(٢) انفرد برواية هذه المقطوعة العماد الأصفهانى فى خريدته جـ ٢ ص ٢٣ .

لا حظَّ لى منه سوى صَدِّهِ   أما لليل الصدِّ من فجْر
قتلىَ بالسيف وإن لم يَجُز   أَهْوَنُ من قتلى بالهجر

وله أيضاً :

يا مُـؤنسى بذكره وموحشى بهجـرهِ[١]
ومن فؤادى مُوقفٌ لنهيـهِ وأمـرهِ
انظرْ إلى معـذَّبٍ عادمٍ حُسْنِ صَبْرِهِ
غـادره جَوْرُ الهَوَى مُـوكَّلاً بفكـرهِ
وسُقمُـهُ لعاذليـهِ قائمٌ بعـذرهِ

وله كذلك :

اشربْ على منظر الحبيبِ فنى   بهجتِه نائبٌ عن البَدْرِ[٢]
ومَتِّع الطرف من لواحظهِ   تَغْنَ بها عن سُلاَفة الخمر
قد سَمَحَ الدهر بالوصال فكنْ   فى دَعَةٍ من بوادرِ الهَجْرِ

وقال أيضاً :

إن حَجَبُوا شخصكَ عن ناظرى   ما حَجَبوا ذكركَ عن خاطرى[٣]
قد زارنى طيفكَ فى مضجعى   يا حَبَّذا طيفُكَ من زائر
وَصَلتَنِى أَفديكَ من واصلٍ   هَجَرْتَنى أَفديك من هاجر

---

(١) انفرد بها كذلك العماد الأصفهانى فى خريدته جـ ٢ ص ٢٤ .
(٢) انفرد بها أيضاً الأصفهانى فى خريدته (المرجع السابق ص ٢٥) .
(٣) انفرد بروايتها كذلك العماد الأصفهانى فى خريدته (المرجع السابق ص ٢٥) .

قافية السين

قال أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن ثابت رحمه الله فى قافية السين :

قل للذى يَحْدو بأَجمالهمْ ماذا على لأَحبابا لو عَرَّسُوا[١]
وحَقُّ من كان له مُؤْنسٌ يَغنَى إذا فارقه المُؤنس
ما ودَّعونا يومَ جَدَّ النَّوَى وإنما ودَّعتِ الأَنفس

وقال أيضاً :

بربكما عَرِّجَا ساعةً ننوحُ على الطَّلل الدارِس[٢]
فَفَيْضُ الدموع على رَسْمِه يُترْجمُ عن حُرَقِ البائس
وعهدى بِغزلانه رتَّعاً لدى مَلعَبٍ بالدُّمى آنسِ
ولى فيهمُ شادنٌ أَهْيَفٌ يفوقُ على الغصُن المائسِ

وله فى السين المكسورة أيضاً هذان البيتان :

وإنى لأَهوى ذكركمْ غير أننى أُغارُ عليكم من مسامع جُلاَّسِى[٣]
عرفتُ بكم دهرًا وللعبد حرمةٌ فلا تتركونى مُوحَشاً إيناسى

(١) روى هذه المقطوعة العماد الأصفهانى (ضمن ما نقله عن النسخة التى أخذها من صلاح الدين الأيوبى (خريدة القصر وجريدة العصر جـ ٢ ص ٢٥) .
(٢) وانفرد بذكر هذه المقطوعة كذلك العماد (المرجع السابق ص ٢٧) .
(٣) رواهما الأصفهانى فى خريدته (المرجع السابق ص ٢٥) ولم يذكرهما أحد سواه .

قافية الشين

وقال رحمه الله فى قافية الشين هذين البيتين :

أَصبحتُ ممن كنت مسْتأنساً   به لخُبثِ الدهر مُسْتَوحشَا[1]
ما ينقضى يومٌ ولا ليلةٌ   إلا بأَحوالٍ تُمِضُّ الحشَا

(١) رواهما الأصفهانى فى خريدته (جـ ٢ ص ٢٦) ولم يذكرهما أحد سواه كما أننا لم نعثر لابن الكيزانى فى هذه القافية على شعر آخر على الإطلاق .

قافية الضاد

وقال ابن الكيزانى رحمه الله فى الضاد المفتوحة هذه الأبيات :

نم هَنِيئاً فلست أَعرفُ غمْضا   قدجعلتُ السُّهادَ بعدك فَرْضَا[١]
لستُ ممن يرى سواك بديلا   لا ولا يبتغى لعهدك نَقضَا
لك قلبى تملكًا فاحتكم فيـ   ـه على أنى بحكمك أَرضى

وقال فى الضاد المكسورة :

بالله يامنتهى سُقمى وأَمراضى   هل أَنتَ راضٍ فإنى بالهوى راضٍ[٢]
لم يبق لى غَرَضٌ فيمن سواكَ فلا   تعنُفْ على مهجتى يا كلَّ أَغراضى
أما تميلُ إلى وَصْلٍ تَسُرُّ به   فقد مضى العمر فى صَدٍّ وإعراضٍ
الحسن علَّمك التحكيمَ فابقَ على   وَجْهِ العدالة فى التحكيم يا قاضى

---

(١) روى هذه الأبيات العماد فى خريدته ضمن القصائد والمقطعات التى نقلها عن نسخة من نسخ ديوان ابن الكيزانى نفسه .

(٢) انفرد بها العماد الأصفهانى أيضاً فى خريدته ص ٢٦ المرجع السابق .

قافية الطاء

وقال رحمه الله فى قافية الطاء هذه المقطوعة :

عَوَّضونى من رضاهم سَخَطَا إذ رأونى بالهوى مُغتَبِطَا[1]

وَسطَوْا إذ مَلكونى عبَثاً حَبَّذَا من جار منهم وسَطا

عَتَبُوا إذ زارنى طيفهمُ إنما كان منامى غَلَطا

وأرادوا الصبر لما هجروا فلعمرى كلَّفونى شَطَطَا

---

(١) رواها العماد الأصفهانى فى خريدته — (المرجع السابق ص ٢٦) ولم نجد له فى هذه القافية شعراً آخر.

قافية العين

وقال فى قافية العين المفتوحة هذه القصيدة :

جَهْدُ عينى أن لا تذوقَ هُجُوعَا — وجفونى أن لا تكفَّ دُمُوعَا[١]

ولسانى أن لا يزال مُقِرًّا — أننى لستُ للعهود مُضيعَا

وفؤادى أن لا يُلِمَّ به الصـ — ـبْرُ وسقمى ألا يرومَ نُزُوعَـا

ولقد أَوْدَعَ الغرامُ بقلبى — زفرات أضحى بها مَصْدُوعَا

وإذا أَطْنَبَ العذولُ فقد عا — هدتُ سمعى أن لا يكون سَمِيعا

وحرامٌ على التلهف أن يَبْـ — ـرَحَ أو يَحْرِقَ الحشَا والضلوعا

وبعيدٌ أن يجمع الله شملى — بالمسرَّات أو نعودَ جَمِيعا

وله فى العين المفتوحة أيضاً هذان البيتان :

هنيئاً لعين مُلِّيَت[٢] منك مَنظَرًا — وسَقياً لأُذنٍ مُتِّعَتْ منك مَسمَعَا

ولستُ أَرى صَفوَ الحياة وطيبهَا — إلى أن يعود العيش أَوْ يتجمَّعا[٣]

---

(١) انفرد بها العماد الأصفهانى فى خريدته (جـ ٢ ص ٢٧) .

(٢) هى هكذا فى الخريدة — أما المحمدون فقد ذكرها بلفظ (مكنت) وملئت فى تقديرنا أنسب من كلمة (مكنت) لأن ملئت وملئت من عبارات الغزل التقليدى أما (مكنت) فإنها — و إن استقام معها المعنى — لا تناسب المقام لأن التمكن والتمكين ومشتقاتها لا تستخدم عادة فى التعبير عن معانى الغزل وأغراض التشبيب .

(٣) أثبتنا هذين البيتين حسب ما رواهما العماد فى الخريدة (الخريدة جـ ٢ ص ٢٧) .

وقال فى العين المكسورة[١] :

وعاذلٍ ضاق به ذَرْعى لم أُعْطِهِ البُلْغَةَ من سَمْعى[٢]
أقول لما لجَّ فى عذلِه كلَّفتَنى ماليس فى الوُسْعِ[٣]
دع مُهْجَتى تحرقها زَفرَتى ومقلتى يُغرقها دَمْعى
الحبُّ شَرْعٌ بين أَربابهِ وما سلوُّ القلب فى الشَّرْعِ

وقال أيضاً :

عَيَّرُونى بأَن سفَحْتُ دموعى حين همَّ الحبيب بالتوديع[٤]
زعموا أَنّنى تَهَتَّكتُ والحِبُّ على ما أريد غَيْرُ مطيعى
لم يذوقوا طعم الفِراق ولا ما أَحْرَقَتْ لوعةُ الهَوَى من ضلوعى
كيف لاأسفح الدموعَ على رَسْـ ـمٍ عَفى بعد سَاكنٍ وجموع

وله أيضاً هذه المقطوعة وهى آخر ما وجدناه من شعر فى قافية العين :

أما واشتياقى نحوكم ودُموعى عليكم وذُلّى فيكمُ وخضوعى[٥]
لئن كان جسمى عنكمْ مُتَخَلِّفاً لقد سرتمُ يوم النَّوَى بهجوعى
ولا غَروَ إن أَفنيتُ روحى صَبَابَةً إذا لم تَمُنُّوا منكمُ برجوع
لعل نسيمَ الريح إن حلَّ أَرضكم يكونُ بتبليغ السلام شفيعى

---

(١) هى هكذا فى الخريدة — وفى المحمدون بلفظ (حلو) . والصفو أكثر ملاءمة للمعنى من كلمة حلو وذلك لأن طيب الواردة فيها بعد تشتمل فى مضمونها على معناها ولو أخذنا برواية المحمدون لكان فى البيت تكرار للمعنى . أما رواية الخريدة فإنها تجنب الشاعر التكرار من ناحية وتكسب المعنى حيوية ورونقاً وتزيد فى معناه من ناحية أخرى .

(٢) انفرد بروايتها العماد (الخريدة جـ٢ ص ٢٧) .

(٣) هى فى الأصل لى — والصحيح ما أثبتناه .

(٤) لم يذكرها أحد سوى الأصفهانى (المرجع السابق ص ٣٤) الذى ذكرها ضمن القصائد والمقطعات التى نقلها عن نسخة أخرى غير النسخة التى أخذها من صلاح الدين (الخريدة جـ ٢ ص ٣٤) .

(٥) روى هذه المقطوعة أيضاً العماد ضمن ما نقله من النسخة السالفة الذكر.

قافية الفاء

قال ابن الكيزانى رحمه الله فى قافية الفاء المكسورة :

بَعُدْتمُ فَقَربْتُمْ ببعدكمُ حتْفى ... وما الموتُ إلا فى مفارقة الإِلْفِ [1]
وقالوا اتَّبعْ عُرْفَ المحبين فى الهوى ... فقلت لهم جارَ الغرامُ على العُرْف
وحَمْلُ يسيرِ الحب يُتلِفُ مهجتى ... فكيف بتحميلى الكثيرَ مع الضعف
وقد زاد بى لَهْفى فلولا تسترِّى ... لناديتُ من فَرْطِ الصبابة والَهْفى
فلا تتركونى للحوادث نُهْبَةً ... فقد صنَعَ الشوق المَبرِّح مايكفى

---

(١) لم يذكر هذه المقطوعة أحد سوى العماد ص ٣٤ وهى نقلا عن غير نسخة صلاح الدين الأيوبى (الخريدة ج ٢ ص ٣٤) . ولم نجد له فى هذه القافية شعراً آخر على الإطلاق .

قافية القاف

وقال ابن الكيزانى رحمه الله فى حرف القاف المفتوحة هذه القصيدة :

خَلِّصونى من يَدَىْ عذلكمُ ... وما أنا أولُ صَبٍّ عشقَا[(١)]
قد تسربلتُ بسقم لَاشُفِى[(٢)] ... وتَهتّكْتُ بدمع لا رقَا
إنما لذّةُ عيشى فى الهوى ... لا أبالى بنعيم أو شقَا
ليس يَبْقَى تحت أحكام الهوى ... أبدًا إلا محبٌّ صدقا
وحبيبى لو رآه عاذلى ... كان باللوم عليه أليَقَا
حبّذا العيشُ الذى كان صَفَا ... منه والكأسُ الذى كان سَقَى
بَسَطَ الدهرُ إلينا باعَهُ ... لم يزل يَعْبَثُ حتى فَرّقَا
أنا لا أسلو عن الحبّ ولا ... أبتغى من أسْرِهِ أن أطلَقَا
أخَذ الدهرُ لحيْنِى رَمَقِى ... ليته أبْقَى علىَّ الرّمقـا

وقال فى القاف المضمومة هذه المقطوعة :

ما أودعوكَ مع الغرام وَوَدَّعوا ... إلا ليتلفَ قلبُكَ المشتاقُ[(٣)]
قف فاستلم أثرَ المطىّ تعَلُّلاً ... إن لم يكن لك نحوهنّ لحاقُ
وتنحَّ عن دعوى هواك فإنه ... إن لم تمتْ يوم الفِراق نفاقُ

---

(١) رواها العماد الأصفهانى ضمن مانقله من القصائد والمقطعات عن نسخة الديوان التى أعطاه إياها السلطان صلاح الدين (الخريدة جـ ٢ ص ٢٨) .

(٢) هى فى الأصل : (اشْق) وهو تحريف أو تصحيف نحسبه قد وقع من النساخ والصحيح ما أثبتناه لاستقامة الوزن والمعنى معه . وفساده مع ما وجدناه فى الأصل .

(٣) انفرد بروايتها أيضاً العماد الأصفهانى (المرجع السابق) .

وله فى القاف المضمومة هذا البيت :

وإذا لاقَ بالمحب غرام   فكذا الوصلُ بالحبيبِ يليقُ[١]

وقال فى القاف المكسورة :

يا من يَرَى عَذَلى به وتحرُّقى   ونحولَ جسمى فى الهوى وتَشَوُّقى[٢]
لم أَلْقَ مثلك مُفرطاً فى صدِّهِ   عَمْدًا ولا فى الحب مثلى قد شَقِى
فبفرط صَدِّك بل بفرط مَحَبَّتى   إلاَّ نظرْتَ إلىَّ نظرة مُشفِقِ
إنى لأَجْزَعُ منك مالو ذقْتَهُ   لعلمتَ ماذا فى الهوى قلبى لَقِى
جُر كيف شئتَ فلستُ أولَ عاشق   كأْسُ المحبَّة فى محبته سُقِى

وقال أيضاً :

لولا المطامعُ بالتلاق   لَذُبْتُ[٣] من فَرْطِ اشتياقى[٤]
إنَّا وإن نَأَتِ الديا   رُ بنا على قُرْبِ الوفاقِ
تمضى بنا الأيامُ فى   صَفوِ الهوى والودّ باق
وأَظلُّ أَمحو بالترجِّى   فيكمُ أَثَرَ الفراق

(١) رواه ابن خلكان على وجه الاستحسان (وفيات الأعيان مادة محمد بن إبراهيم بن ثابت) .

(٢) رواه العماد الأصفهانى ضمن القصائد والمقطعات التى نقلها عن النسخة التى وقعت له غير التى مغايرة لنسخة صلاح الدين (الخريدة جـ ٢ ص ٣٥) .

(٣) تقتضى سلامة الوزن أن تمد اللام حركتين — الأمر الذى يحملنا على القول بأن البيت قد دخله الخبن أو أن هذا الشعر كان ينشد ويغنى به لأن الغناء هو الذى يتأتى معه مثل هذا المد والواقع أن أبيات هذه المقطوعة فى مجموع ألفاظها وكل كلماتها تساومه طبيعة الغناء .

(٤) المرجع السابق .

وقال فى القاف المكسورة أيضاً :

ما لقلبى من لوعة البين راقِ ... أترانى أحْيَا ليوم التلاقى(١)

عَزمَة لم تَدَعْ لجفنى دَمْعًا ... لا ولا فى الحَشا مكانَ اشتياقِ

أطمعونى حتى إذا أسرونى ... عَذَّبوا مهجتى وشَدُّوا وَثَاقى

واستلذُّوا الفراق حتى كأَنْ لم ... يعلموا أنه مريرُ المذاق

ما على ذا عاهدتكمْ فذروا الهجـ ... ـرَ لَيرْقا من دمعىَ المُهْرَاقِ

إن تكونوا حَرَّمتمُ الوصل فالجفـ ... ـنُ بعيدُ المدى على الانْطِباقِ

فى سبيل الهوى نفوسٌ أقامتْ ... بعد وشك النَّوَى على الميثاق

لا يَغُرَّنكم فلست على البيـ ... ـتِ إذا لم تُبْقوا علىَّ بباقِ

---

(١) ذكرها العماد فى خريدته نقلا عن نسخة صلاح الدين (الخريدة جـ ٢ ص ٢٧) .

قافية الكاف

وقال رحمه الله فى حرف الكاف :

إنى لأعجب من صُدو دكِ وأنعطافِك فى خيالكْ[١]
ياليت ذاك مكان ذا عندى وذا بمكان ذلكْ
لأكون مشتملاً على وَجْهِ الحقيقة من وصالك

وقال أيضاً :

ملك الشوقُ مهجتى حبَّذَا من تملَّكا[٢]
قد رمانى بحبهِ ونَهَانى عن البُكا
إنما راحةُ المحـ بٍّ إذا أنَّ أو شَكا
ما أرى للسُّلُوِّ عنـ ه وإن جارَ مَسْلَكا

وقال أيضاً :

يا كاتمَ الحُبِّ والأجفانُ تَهتِكُهُ وطالب العِتْقِ والأشواقُ تملكُهُ[٣]
شرط المحبَّة أن لا يشتكى مَلَلاً من قد رأى أنَّ فَرْطَ الحب يُهْلِكهُ
والصبرُ تحت مذلاَّتِ الهوى أبدا عزٌّ فما منصفٌ فى الحب يترُكه
دَمُ المحبِّ بأيدى الحِبِّ مبتذَلٌ إن شاءَ يمنعُه أو شاءَ يَسْفِكهُ
من كان فى شَرَكِ الأشواقِ مُرْتَهَناً كانت له عُلَقٌ لا بُدَّ تُمْسِكُهُ

---

(١) رواها العماد فى خريدته (جـ ٢ ص ٣٠) .

(٢) روى هذه المقطوعة فى خريدته ضمن القصائد والمقطعات التى نقلها عن إحدى نسخ ديوان ابن الكيزانى وهى التى ذكر فيها أنه حصل عليها من صلاح الدين الأيوبى . وقال إنها تشتمل على مجموعة الغزليات . (خريدة القصر جـ ٢ ص ٢٩) .

(٣) انفرد بروايتها كذلك العماد (المرجع السابق) .

وقال أيضاً عفا الله عنه :

أىَّ طريق أسلُكُ وأىَّ قَلبٍ أملك[١]

وَأىَّ صبرٍ أَبتغى وهو بكُمْ مُستهلَكُ

أدارنى حبّكمُ كما يدُور الفلكُ

أأنثنى وكلُّ عضـو فيه منكمْ شَرَكُ

أخلصتُ فيكم باطناً فيه هَوًى لا يُدْرَكُ

جَلَّ فما فى صَفوةٍ شَوْبٌ ولا مُشتَرَكُ

ولاؤكمْ لى مَذهَبٌ وذكركمْ لى نُسُكُ

ومهجتى مملوكةٌ يا حبذا الممَلَّكُ

وإن أردتمْ فاحقِنوا وإن أردتم فاسفكوا

ما أنتمُ ممن يُخَلَّى حُبُّه ويُترَكُ

وقال فى الكاف المكسورة هذه المقطوعة :

يا دارُ هل تجدين وجد الشاكى أمْ تعطفين على بُكاء الباكى[٢]

لا تُنكرى سَقمَى فما حكَم البَلاَ[٣] فى مُهْجتى إلاَّ لأجل بلاكِ

---

(١) ذكرها كذلك العماد الأصفهانى وحده (خريدة القصر ج ٢ ص ٢٩) .

(٢) رواها الصلاح الصفدى فى وافيه (الوافى بالوفيات ج ٢ ص ٣٤٧) طبع استانبول . والعماد الأصفهانى فى خريدته (خريدة القصر ج ٢ ص ٣٠) .

(٣) البلا : مقصور البلاء بمعنى الابتلاء من مرض ونحوه . وهذه هى رواية العماد – أما الصفدى فقد أوردها بلفظ (البلى) بمعنى الدروس أو الفناء . والأصح والأنسب ما أثبتناه . لأن (البلى) بكسر الباء مع الألف المقصورة فى نهاية الكلمة لا يناسب المقام بل يأباه سياق الكلام – لأن الشاعر يتحدث عن مهجته وما ألم بها من تفطر وتحسر وما لحقها من القرح والجرح بسبب ادكار الحبيب أو رؤية آثار الديار وهذا بطبيعة الحال لا يتصور حدوثه إلا مع إنسان ذى مهجة وهو لا يزال على قيد الحياة . الأمر الذى يجعلنا نرجح كلمة البلاء بفتح الباء – ونرفض روايتها بالكسر – لأن البلاء بفتح الباء معناه الابتلاء بمرض أو سقام . أما (البلى) فإنه يعنى أن مهجته قد بليت بمعنى أنها أضحت فى حالة أشبه بالانعدام أو الفناء، وهذا لا يتأتى بطبيعة الحال مع إنسان يتحدث عن نفسه لأن تحدثه عن نفسه يقتضى أنه لا يزال على قيد الحياة وبالتالى فإن مهجته لاتزال كذلك موجودة على صورتها التى فطره الله عليها . أعنى أنه لم ينلها أى ضرب من ضروب العدم أو الفناء .

أَصبحت دائِرَة الجَنَابِ وطالما طابَ الهوَى وغَنِيتُ فى مَغْناكِ
أَمحلٌّ إطرابى بعيشك عاودى(١) لوْلاكِ ما كانَ الجوى لوْلاكِ
ماقصَّرَتْ نَوحاً حمامات اللِّوَى(٢) مُذ غاب عن قُمرِيها(٣) قَمَرَاكِ

(١) هى هكذا فى رواية العماد الأصفهانى – أما الصلاح الصفدى فقد أوردها بلفظ (غادرى) وقد آثرنا رواية العماد على رواية الصفدى بسبب فنى يتعلق بناحية الإشعاع العاطفى وليس لغرض لغوى إذ أن الغدر قبيح فى معرض الحب والغزل ولا يرد مستحسناً قط مقام التشبيب .

(٢) هى هكذا فى رواية العماد – وفى الوافى للصفدى بلفظ (الحمى) . واللوى أصح لسلامته من التنافر الناشئ عن تكرار حرف الحاء فى كلمتين متواليتين .

(٣) القمر : اسم لنوع من الحمام جميل الشكل ، عذب الصوت ، حسن المنظر .

قافية اللام

قال أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن الكيزانى عفا الله عنه وأحسن مثواه فى **قافية اللام** :

تِهْ كيف شئتَ دَلالاَ ‏ ‏ ‏ لا صبر لى عنك لاَ لاَ[١]
إنى لأَحْمَدَ قلباً ‏ ‏ ‏ صَبَا إليك ومالا
فلستُ أَبغِى بحالى ‏ ‏ ‏ سواكَ ما عِشْتُ حالا

وله أيضاً فى اللام المفتوحة :

أَأطْرَقْتُ حين رأَيتهُ خَجَلا ‏ ‏ ‏ عند اللقاء فظنَّه مَلَلا[٢]
حاشا ودادى أن يُنَهْنِهَهُ ‏ ‏ ‏ جَوْرُ الهَوَى ولو أنَّهُ قَتَلا

وله فى نفس القافية والروى هذه المقطوعة :

لو كان هذا الهوى الذى قَتَلا ‏ ‏ ‏ ما بين قلبى وبينهم عَدَلا[٣]
لما استحلّوا بهجرهم تَلَفِى ‏ ‏ ‏ ولا استمالوا إلى الذى عذَلا
أَمنحهم رِقَّ مهجتِى ودمى ‏ ‏ ‏ ويمنحونَ الصدودَ والمَلَلاَ
ما كل من بَرَّح الغرامُ به ‏ ‏ ‏ والحبُّ يبغى بحبه بدلا

وقال أيضاً :

ليتنى كنتُ مُخَلًّى ‏ ‏ ‏ بحبيبى أَتمَلَّى[٤]

---

(١) رواها العماد فى خريدته نقلا عن نسخة وقعت إليه مخالفة لنسخة صلاح الدين (الخريدة جـ ٢ ص ٣٧).

(٢) رواهما العماد نقلا عن النسخة السالفة الذكر (المرجع السابق).

(٣) انفرد بروايتها كذلك العماد (المرجع السابق).

(٤) رواها العماد الأصفهانى فى خريدته (الخريدة جـ ٢ ص ٣٨).

مَنَعُــوه من وصالى فَانثَنَى عــزِّىَ ذُلاًّ
ففؤادى بين شوقٍ وغــرامى يَتَقَــلَّى(١)
وأَراهم حسبــونى بسواهم أَتَسَــلَّى
لا رَعَى اللهُ مُحِبًّــا تَرَكَ الحبَّ وَمَــلَّا
كنتُ بالصبرِ ضنيناً فتــولَّى حين وَلَّى

وقال فى اللام المضمومة :

أَسُكَّانَ هذا الحىِّ من آل مالكٍ مسالمةٌ ما بيننا وجَمِيلُ(٢)
أَلم تَعِدونا أَن تزُورُوا تكرُّماً فما بالُ ميعاد الوصالِ يطولُ
وَحُلْتُمْ عن الوَعدِ الجميل مَلالَةً وأَنتم على نَقضِ العهود نُزُول
إِذا قيل من تهوونه صارحَانشا بِعَهْدِكُمُ ماذا هناكَ يقول
وإِنا لَنَسْتَبقِى المودَّة والهوى شهيدٌ لنا إِذ ليس عنه نُزُولُ
ولا تَحسَبُوا العُتْبَى عليكم تَوَجعاً فيطمع واشٍ أَو يَلجَّ عَذُولُ
رضينا رضينا أَن نُبِيح نفوسنا وما عاشقٌ منا بذاكَ بخيلُ
وما منكمُ بُدٌّ على كل حالة وإِن كان فيكم هاجرٌ وملولُ
كذاك الهوى: هذا حبيبٌ مُعَزَّز وهذا محبٌّ فى هواه ذليل
ووجدٌ وشوقٌ وارتياحٌ ولوعةٌ وهجرٌ وسقمٌ دائمٌ ونحولُ
دواعى الهوى محتومةٌ فاصطبرْلها وإِن جارَ بَيْنٌ أَو جفاكَ خليل
علمنا بوشك البَين أَوَّلَ خالهِ وما حَضرَتْنَا للوداع عقولُ
إِذا ما طمعنا أَن تَقَرَّ ديارُهم تداركهم بعد الرحيلِ رَحيلُ

(١) كلمة يستعملها العامة فى التعبير عن فرط الوجد وشدة الألم وكثرة الاضطراب مع بالغ الاستياء وعمق الشعور بالمرارة والأسى فكأنه يقلى فى زيت على النار.

(٢) ذكر العماد الأصفهانى فى الخريدة (الخريدة جـ ٢ ص ٣٥) أربعة عشر بيتاً كما أثبتناها أما الصفدى فقد ذكر منها فى كتابه الوافى ستة أبيات وهى الثلاثة الأولى والخامس والثامن والحادى عشر (الوافى للوفيات جـ/١ ص ٣٤٧) .

وقال أيضاً :

هجروا مخافة أَن يُمَلُّوا ظَنُّوا إصوابَهُمُ فَدَلُّوا(١)
أَوَ لَيسَ هُمْ روحى فكيـ ـف أَمِيلُ عنهمُ حيث حَلُّوا
لم يجهلوا تحريمَ قتـ ـلى فى الهم فيمَ استحلُّوا ؟
لكنهم علموا بفر طِ محبتى لهمُ فَدَلُّوا
وتعزَّزوا بالحبّ فآطَّر حوا محلى فآستدلُّوا
لم يبقَ من رمَقى لهجـ ـرِ أَحبّتى إلاَّ الأَقـلُّ
لله ما تركوه من جسمى سليماً أَو أَعَلُّوا

وقال أيضاً :

ناديتهم إذ حَمَّلوا بحقكمْ لا تعجَلُوا(٢)
تعطَّفوا بنظرةٍ من قبل أَنْ تحمَّلُوا
لم يبق إلا نَفَسٌ وأَدمعٌ تَنْهمِلُ
ما وقفةٌ لمُغْرَمٍ لم يُغْنِه التَّعَلُّلُ
ويا فراقُ كم تُرَى أَنتَ بنا مُوَكَّلُ
أَنا المُعَنَّى بهمُ إن أَسرعوا أَو نَزَلوا
فخلِّ عن عَذْلى فلَن يَنفَعَ فىَّ العَذَلُ
ما لفؤادى عنهمُ صَبرٌ ولا لى مَعدَلُ
ولا سرورى حين ولَّى وغرامى مُقْبِلُ
وغادروا قلبى على جَمرِ الهوى يَشْتَعِلُ

---

(١) انفرد بروايتها العماد (الخريدة ج ٢ ص ٣١) .
(٢) رواها العماد وحده كذلك (الخريدة ج ٢ ص ٣٦) .

وله رحمه الله فى اللام المكسورة :

أَنعمــوا لى بالوصال وأرحمــو رِقّةَ حالى[١]
لا تذيبــوا مهجتى بَيـ نَ التجنِّى والدلالِ
ليس عندى فى هواكمْ قد بَدَا لى قد بَدَالى
إنما قصــدى رضاكم قد حَلاَ لى قد حَلاَ لى
فإن اخترتم عذابى لا أبالى لا أبالى

وقال أيضاً :

أتزعم ليلى أننى لا أحبها وأنّى لما ألقاهُ غيرُ حَمُولِ[٢]
فلا ووقوفى بين أَلوِيَة الهوى وعصيانِ قلبى للهوى وعذولى
لو انتظمَتنى أَسهُمُ الهجر كلها لكنتُ على الأَيام غَيرَ مَلُولِ
ولست أُبالى إذ تعلَّقتُ حبها أَفاضَت دموعى أَم أَضَرَّ نحولى
وما عبَثى بالنوم إلا تعلُّلاً عَسَى الطَّيفُ منها أن يكونَ رسُولى

وقال أيضاً :

ما أَرخَصَ الدمعَ على ناظرى فى الحبِّ إلا وَصلَكَ الغالى[٣]
يَسُرُّنى منِكَ عذابى وأَنْ تَبقَى رَخِيًّا ناعم البالِ
قد أَطنَبَ العذَّالُ فى قصَّتى وأَكثروا فى القِيل والقالِ
ما قلبهم قلبى ولا وَجْدُهُم وجدى ولا حالُهم حالى

---

(١) رواها العماد الأصفهانى نقلا عن نسخة الديوان (الخريدة جـ ٢ ص ٣٠).

(٢) روى هذه المقطوعة كل من الصفدى والعماد الأصفهانى – ولم أجد فرقاً بين الروايتين سوى أن العماد ذكرها خمسة أبيات – أما الصفدى فقد ذكر منها الأربعة الأول فقط (الخريدة جـ ٢ ص ٣٨).

(الوافى بالوفيات جـ ١ ص ٣٤٧).

(٣) انفرد بروايتها العماد الأصفهانى (الخريدة جـ ٢ ص ٣٨).

تَعالَوْا نحاكمكمْ على أيِّ مذهبٍ　　أبحتُمْ بلا جُرْمٍ أتيتُ به قتْلى (١)
فإن قلتمُ حكْمُ الهوى فاصنعوا يَدًا　　مخافَةَ أن تُبْلَوْا بجَور الهَوَى مثلى
أو التزموا عهدًا أعَلِّلُ مُهجتى　　به واتركوا الآمال فى قبضة الأمل
وإلا فردّوا لى فؤادي فإنما　　سمحتُ به كى تسمحوا الى بالوصل
وقولوا لنومى عُدْ وللشوق لاتَزِدْ　　وللعين كُفِّى واقطعوا سَبَبَ العَذل
وهذي قضايا الحق قد جئتكم بها　　فما لكمُ لاترجعونَ إلى العَدل

(١) ذكرها العماد أيضاً من غير نسخة الديوان — (المرجع السابق ص ٣٧) .

قافية الميم

قال عبد الله بن الكيزانى فى قافية الميم :

تَخَيَّر لنفسك من تصطفيه ... ولا تُدنِيَنَّ إليكَ اللِّئاما[1]
فليس الصَّديق صديقَ الرَّخاء ... ولكن إذا قَعَدَ الدهر قاما
تَنامُ وهمَّته فى الذى ... يَهُمُّكَ لا يَستَلِذُّ المناما
وكم ضاحكٍ لك أحشاؤه ... تمَنَّاك أَن لو لَقِيتَ الحماما

وقال أيضاً :

ناديتُ حاديَهُمْ والعِيسُ سائرةٌ ... رفقاً فقلبى بهم رَهْنٌ وما عَلموا[2]
إن كنتَ فى غفلةٍ عما أكابدُهُ ... فدَمعُ عينى على مافى الحَشَا عَلَمُ
وقد تولَّى عزاءُ النفس مذ رحلوا ... عنى فكيف أُطِيق الصبر بَعْدَهُمُ
همُ استحلوا دمى عمداً فلا حَرَجٌ ... إن أسعفونى بالإنصاف أو ظلموا
والله لو أننى خُيِّرتُ من زمنى ... ما كان لى بُغيَةٌ فى الناس غَيرَهُمُ

وقال أيضاً :

ليس حظى من الحبائب إلا ... لوعةٌ أَو تأَسُّفٌ أَو غَرَامُ[3]
حَكَّموا البَين والهوى فىَّ لما ... علموا أَنَّنى بهم مستَهامُ
أَنا راضٍ فليصنعوا ما أَرادوا ... كلُّ صبر عنهم علىَّ حرامُ
هُم رجائى وهم نهاية سُولى ... وهمُ بُرءُ مُهْجَتى والسلام

---

(١) رواها كل من العماد الأصفهانى وسبط بن الجوزى (الخريدة ج ٢ ص ٣٩) .
(مرآة الزمان ج ٢ ص ١٥٧) .
(٢) انفرد بروايتها العماد (الخريدة ج ٢ ص ٣٩) .
(٣) رواها العماد وحده ايضا (المرجع السابق) .

وقال أيضاً :

يا منصفاً في كل أحوالهِ ... لا تخرج الإنصافِ عن رسمهِ (١)
هَب أنني أبديتُ جُرماً وقد ... يعتذر الإنسان من جُرمِهِ
قد كثُر القيلُ وحاشاكَ أن ... تسمع قولَ الخصم في خصمِه
أنظر إلى الباطن من أمرنا ... فراحةُ العالِم في علمِه
فإن رأيتَ الحقَّ حتى فلا ... تمكِّنِ الظالمَ من ظُلمِه

وقال أيضاً :

أيَّ صبر تركتمُ لِيَ لما رَحَلتُمْ (٢)
لي فؤادٌ متيَّمٌ سائرٌ حيث سرتمْ
أنا في كل حالة عَبدكم إن رضيتمْ
ثابتٌ تحت حكمكم جُرتُمُ أو عَدَلْتُمْ
فبحقِّ الهوى المبرِّح إمَّا رَحِمتُمْ

---

(١) رواها العماد الأصفهاني (الخريدة — ج ٢ ص ٣١) .

(٢) انفرد بروايتها على هذه الصورة العماد الأصفهاني (الخريدة ج ٢ ص ٣٩) . أما الصفدي فقد رواها هكذا :

أي صبر تركتم لي لما رحلتم ... لي فؤاد متيم ساير حيث سريتم
ثابت تحت حبكم جرتم أو عدلتم ... فبحق الهوى المبرح ألا رحمتم

قافية النون

قال ابن الكيزانى تغمده الله برحمته وأحسن إليه وطيب ثراه فى قافية النون المتصلة بالضمير :

أَنا بالصبر فيه لا الصبر عَنهُ ... تحت حكم الهوى بما جاءَ منْهُ[1]
قد صفَت لى محبَّةٌ لم أكدِّر ... هَا وعهدٌ مقدَّم لم أَخُنْهُ
فاعترانى الصدودُ أَن زال حُبِى ... وحُرمتُ الوصال إن لم أصنهُ
قد تمنيتُ أَن تكون وصولاً ... فتَفضَّل بهِ علىَّ وكُنْــهُ
كل حبٍّ له إذا نَظَرَ النـــا ... ظرُ كُنهٌ وما لحبِّىَ كُنهُ

وقال فى النون المكسورة :

إن بين الكرَىِ وأَجفَان عينى ... مثلَ ما بينَ وَصل حِبى وبينى[2]
ولقد أَوجبَ الهوى بُعدَ صَبرى ... مثل ما أَوجب النَّوَى قُرب حَيْنى
زعم اللائمون أن سقامى ... شَينُ جسمى فليت لونىَ شينى
لى ديونٌ على الحبيب كثيرٌ ... وأرى حَظِّىَ المِطَالَ بدَينى
أَنَا من كثرة الصدود مَلِئٌ ... غير أَنِّى فى الوصل صِفرُ اليدينِ

(١) رواها العماد الأصفهانى فى خريدته نقلا عن نسخة الديوان التى كانت ملك صلاح الدين الأيوبى (الخريدة جـ ٢ ص ٣٢) .
(٢) انفرد بذكرها العماد الأصفهانى فى خريدته (المرجع السابق ص ٣١) .

قافية الواو

وقال رحمه الله فى قافية الواو هذه المقطوعة :

تريد الهوى صِرفاً من الضُّرِّ والبَلْوَى ... لعمرك ما هٰذِى قضيَّةُ مَن يَهوَى[1]

إذا لم يكن طَرفُ المحبِّ مُسَهَّدًا ... وأدمُعُهُ تَجرِى فهذا هو الدعوى

ولا حبَّ إلا أن ترى كُلْفَةَ الهوى ... ألذَّ من المنِّ المنزَّل والسَّلْوَى

وحتى ترى القلب القريحَ من الهوى ... يمانعه الصبرُ الجميل من السَّلْوَى

رَعَى اللهُ من أعطى المحبةَ حقَّها ... وإن لم يكن فيها من الأَمر ما يقْوَى

(١) رواها العماد الأصفهانى فى خريدته (جـ ٢ ص ٣٢) نقلا عن نسخة الديوان، هذا ولم نجد له فى الواو أى شعر آخر على الإطلاق .

مراجع البحث ومصادر الديوان

١ – أبو الفداء – مختصراً جفار البشر – طبع القاهرة (أربعة أجزاء) .
٢ – ابن الأثير – الكامل فى التاريخ طبع ليدن (اثنا عشر مجلداً) .
٣ – ابن خلكان – وفيات الأعيان – طبع القاهرة (أربعة أجزاء) .
٤ – ابن تغرى بردى – النجوم الزاهرة – طبع القاهرة (اثنا عشر جزءاً) .
٥ – ابن كثير – البداية والنهاية – طبع القاهرة (أربعة أجزاء) .
٦ – ابن حجلة – ديوان الصبابة .
٧ – ابن حجة الحموى – خزانة الأدب – طبع القاهرة .
٨ – أحمد بن على المعروف بالشهاب الحجازى – روضة الأدب – نسخة مخطوطة محفوظة بدار الكتب تحت رقم ٤٨٣ أدب .
٩ – عبد الرؤوف المنياوي – الكواكب الدرية – نسخة مخطوطة محفوظة بدار الكتب تحت رقم ٢٥٩ و ٢٦٠ تاريخ .
١٠ – عبد الغنى المعروف بابن العماد الحنبلى – شذرات الذهب – طبع القاهرة (ثمانية أجزاء) .
١١ – العماد الأصفهانى – خريدة القصر وجريدة العصر طبع القاهرة (الجزء الثانى) .
١٢ – عبد الوهاب السبكى – طبقات الشافعية الكبرى – طبع القاهرة (ستة أجزاء) .
١٣ – موسى بن سعيد المغربى – المغرب فى حلى المغرب – طبع القاهرة القسم الخاص بشعراء مصر .
١٤ – محمد كامل حسين – دراسات فى الشعر الأيوبى .
١٥ – محمد كامل حسين – فى أدب مصر الفاطمية .
١٦ – أبو شامة المقدس – تجاه الروضتين فى أخبار الدولتين – الجزء الأول .

١٧ – سبط بن الجوزى (مرآة الزمان) طبع شيكاغو (بالزنكوغراف) فى ثمانية مجلدات .

١٨ – الصلاح خليل بن أيبك الصفدى – الوافى بالوفيات – طبع الآستانة جـ ١ .

١٩ – السخاوى – تحفة الأحباب – طبع القاهرة – مجلد ١ .

٢٠ – محمد بن الزيات – الكواكب السيارة فى تنقيب الزيارة – طبع القاهرة مجلد واحد .

٢١ – شمس الدين الذهبي – تاريخ الإسلام – نسخة مخطوطة بدار الكتب تحت رقم ٤٢ تاريخ .

٢٢ – ابن شاكر الكتبي عيون التواريخ نسخة مخطوطة محفوظة بدار الكتب .

٢٣ – جلال الدين السيوطى – حسن المحاضرة – طبع الإسكندرية – جزءان .

٢٤ – أحمد بن على المقريزى – أنباء الحنفاء فى أخبار الخلفاء – طبع القاهرة .

٢٥ – أحمد بن على المقريزى – الخطط .

فهرست الكتاب

صفحة

صفحة

فهرست الديوان